

اخلاق و آداب

احلام الاسلام

تأليف

حازق

(حقوق الطبع محفوظة لجريدة اللواء)

الطبعة الاولى

(سنة ١٣١٨ هجرية)

(طبع بمطبعة اللواء بمصر)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ سبحان الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا يوم ﴾
حدثنا صادق بن خبير قال : دخلت مصر من الامصار . على عادة
السياح والسفار . فترددت على ساداتها . وعيون أعيانها . وصحبت كهولها وشبانها .
فطاب لى الزمان والمكان . وما زلت بها حتى دخل على شهر رمضان . سنة
ستين وستمئة وخمسة آلاف . أو أحد عشر ومائتين والفين بلاخلاف . فسمرت
ليلة من ليليه مع صحب لى وكان الحديث فى فضل ليلة القدر . التى هى خير من
الف شهر . والشىء بالشىء يذكر فسر دفتيه القوم ماجاء فيها من شريف الآثار .
وصحيح الاخبار . التى منها ان تفتح أبواب السماء . لقبول الدعاء . ومازلنا نخوض فى
أمرها . ونتبرك بذكرها . حتى نزل بالراس . طيف النعاس . وانصرفت مع
الناس . وأخذت فى أهبة النوم . بعد مفارقة القوم . وانا على تشوف الى هذه
الليلة المباركة الزاهرة . لالتمس من الله سبحانه وتعالى ما أريده من خيرى الدنيا
والآخرة . فما أغفيت حتى رأيت كأنى فى واد لبستهم أرضه الخلال السندسية .
وتوجت تيجان نجومه باكاليل الزهر الزهيه . وجرت فيه انهار ماء النعيم .
يجعد وجهها تسنيم النسيم . كأنها سيف سلته كف مرتعش . أو ذهل دهش .

والشمس كأنها ملك تحرك للرحيل . فنثر تبرا لمواليه على الاصيل . او كأن الافق
شفة كأس مليء رحيقا . او شفة محبوب اعسلها ريقا . وكأن السماء طيلسان لا زوردي
والافق سجافه الاحمر . او امارة خجلة الشمس اذ همها الليل وناهيك بدهمة
الاسمر . او انها من كثرة الالوان . بستان . او من الفرح . قوس قزح . والمكان
على خالوه من كل انسان . بعيد عن وحشة الزمان . حتى كأن ارواحا مطهرة
مسخرة للانس فيه تمر عصائب عصائب او كأن مظاهر من الابتهاج يتوالى
طنينها وصداها من كل جانب . يكاد الانسان يتسمع من حواليه أصوات
الفرح فوق تلك الهضاب . ويتناغى باحاديث الطرب مع اعلام تلك الرحاب .
وأنا كلما وعيت قلباً . سمعت عجباً . فيالها ساعة انتعشت روحى برينها .
واتحدت بسناها . وحركة الزمن من لطفها خفيت على الابصار . حتى لم أستشعر
بولوج الليل في النهار . ولم يدرك النظر . تبدل سلطان الشمس بولاية أخيها
القمر . وقد أخذ النسيم بمجامع الاحساس . كما أخذت المناظر بجميع الحواس .
فسرحت طرفي في أطرافى . وأرسلت رائد بصرى لاستطلع الظاهر والخافى .
فلم يرتد على الطرف . الا بما لطف وخف . مما تخطفه النفس قبل العين .
وتتناوله الروح قبل اليدين . وبينما رائد البصر . يتنقل في ظاهر هذا الجمال الذى
ظهر . ويستكشف منه غرائب ما استتر . بسر نور القمر . واذا بشئ تبدى
وسط الأفق . لا يشبهه نور البدر . ولا تحكيه طلعة الفجر . ولا يمثله ضوء
ذكاء . ولا مجموع نجوم السماء . لازدياده في رتبة الصفاء والضياء . فأدرت ان
ليلى هذه غير التى قال فيها أبو العلاء

ليلى هذه عروس من الزند ج عليها فلأند من جمان

بل هي ليلة القدر . والنور نورها . لا بدر ولا فجر . فاجزى الله على

لساني ان اسأله ليريني (اعجب ماخلق في الوجود . واغرب ماوجد من كل موجود) فماقلت ذلك ودعوت . الا ورايت مارايت : رايت صورة لم أعهد ان الارض تنشق عن مثلها . ولا ان السماء يتنزل منها مثل جمالها . تكونت في هيئة شاب يناديني . وهو يوافيني . يقول لقد أوتيت سؤالك فيما سألت . فسلم الى ماطلبت . فقلت وكيف ذلك . قال أنا المسخر لان أريك ماتريد . من قريب وبعيد . وقد أمرت بأن أكشف غطاء بصرك اسبوعا . لترى نفسك ماتشتهي لامقطوعا ولا ممنوعا . وموعدا بكرة الغد . بكرة الاحد . بكرة اليوم الذي بدأ فيه الحق . بخلق الخلق . لتأخذ من كل غريب . بنصيب . وترى كل عجيب . يذهل اللبيب النجيب . فعاود الان النوم . وموعدا بكرة اليوم . لتحكم بالزين أو الشين . فان النهار ذو عينين . فقلت على الراس والعين

ثم لم اكد استريح . الا وقد اشرق وجه الصبح الصبيح . وظهرت الشمس بوجهها المليح . فاذا به بين يدي . يمسح عن عيني . ثم قذف بي في الفضاء . وقال شأنك وما تريد . وتلى فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد . فاذا بي جالس على منصة بين الارض والسماء . على غاية الاستواء . فاعتدلت واسترحت . وجلست وتمكنت . ثم قال لي انظر فنظرت . فرأيت احياء كأنها الجسد المسلول الذي ألم به الضعف . فأما منه النصف . تظهر فيها الدور التي لاتروق النواظر رؤيتها . ولا تشرح الصدور طلعتها . ضاقت بها الطرقات . وتضايقت الرجبات . وتخللت أوصالها الخرابات كأنها هضبة في خلاء . أو أنقاض في فناء . أو شيء آل الى الفناء . وبجوارها قصور تمثل زخرف الارض وزينتها . وبهجة الحياة الدنيا وسعادتها .

عالية شائعة . مشيدة راسخة . وضعت على اتم الاشكال الهندسية . وأسست
على أمتن الطرق القوية

فقال تأمل هذه مستقصياً لنعمةها . ثم نعود لنرى أختها . فنظرت فاذا
شوارع وأسواق عريضة مستقيمة فرشت أرضها بأجود الحجر . وزينت
جوانبها بنصرة الشجر . ممتدة اغصانه . متلاعبة أفنانه . تظلل الممر . وتلطف الحر
والناس على أرضه من الجانيين . مرتفعة عن اليبين . كي لا ركب يصدمهم .
ولا فارس يزحمهم . ولا مركبة تدوسهم . ولا مار يدافعهم . والخوانيت
من الجهتين ملامى بالسلع المتنوعة النفيسة . والامتعة المختلفة والجواهر الثمينة
والملابس الفاخرة . والاثاث الباهرة . والزخارف البديعة . والغرائب من كل
زينة . والى الجميلة العديدة . ودكاكين باعة الزهور المتنوعة . بها باقات لا يحصيها
العبد . ولا يصل اليها الحد . وضعت على أسلوب يأخذ بجماع النفوس . ويذهب
البوس . وزخارف لسائر حاجات النعيم والترف . منضدة معروضة للانظار
كالتحف . وضعت من خلف زجاج الخوانيت فاكتست رونقاً أزهى .
وربتت على أبداع ترتيب فاكتسبت شكلاً أبهى . ويتخلل هذه الخوانيت
مطاعم للغرباء . ومشارب للنزلاء . جمعت من الماء كل انضجها واشهاها . ومن
الالوان اغربها والذها واحلاها . ومن انواع اللحوم الطرية . البرية والبحرية .
والبقول الفكيهة والفواكه النقية . والموائد ممتد عليها غطاء ابيض نظيف وعليها
الصحاف البديعة اللامعة مما خف ولطف . من فاخر الخرف . وبجانها آلات
الاكل من خالص الفضة ونقى المعدن وقنينات الخمر . والماء المثلوج فى دوارق
البلور . وباقات الزهور التى تبهج الخاطر . وتقر بمرآها النواظر . مرفوعة على وعاء
بديع يطوف على تلك الموائد غلمان فى غاية النظافة والخفة والنشاط قائمون

بمقام الخدمة البالغة منتهى الاتقان . وقد زين المكان بسديع الالوان .
ولطائف التصاوير . التي تناسب مقام الطعام وتستجلب شهوة من يراها من
الانام . وفوق هذه الامكنة الدور والنادق والناس فيها على قدم وساق .
فالنساء تحلى وتجميل . والرجال تتنظف وتزين . ومنهم من ينتظر الحوذى
ليهيء له جواد مركبته . ومنهم من يستدعى الخادم ليأتيه بملابسه الجديدة
وأمتعته . فقلت من هؤلاء قال النزلاء الاجانب يفعلون هذه الافعال لخلوهم
اليوم من جميع الاشغال فاليوم عندهم يوم رياضة وخلاعة ومجانسة ومؤانسة
ثم نظرت فاذا جماعة آخرون في هياط . ومياط . منهم من يصلح رداءه
ومنهم من ينتظر حذاءه . ومنهم من راسل أحد أصحابه من أرباب الاموال
ليأتيه بشيء يصلح به الحال . ومنهم من أخذ يلج مع اهل بيته حتى يأخذ
حليا يودعه ليم له ما يريد أن يستجمعه . ومنهم من أخذ في الشتم والضرب .
والنهر والسب . لتصادق في بعض حاجاته . أو نقص اتفق حدوثه لشيء من
أدواته . فلو رأيت الواحد منهم وقد وقف امام المرأة يتأنق في لبس أثوابه
لعلت سر التمدن الحديث كأنما هو العروس ليلة زفافها يتدىء كله الله
بتمشيط شعره وفرقه بالضبط والتدقيق ثم ينظر اليه بعين المنتقد الدقيق
ويقلب رأسه يمنة ويسرة ويحركها أماماً وخلفاً ليرى مجموعها من جميع الجهات
ثم يعكف على تلك الشوارب فيكويها بمكواها حتى تصبح على اجمل ما يكون
من البرم والقتل . وتحوز على جمال صورته أحسن الشكل . ثم يقصد علب
المعطرات الطيبة ويأخذ منها ما يأخذ على تنوع الاجناس . منها ما هو للرأس
ومنها ما هو للمنديل واللباس . ثم يتبسم في المرأة ويعبس ليرى نفسه كيف
يكون أنسها وقت الطرب . وبأسها في ساعة الغضب . ولا يزال حتى تطمئن

نفسه ويرسخ في اعتقاده كمال حسنه . ثم ينتقل الى رباط الرقبة ولا يزال في حله وربطه حتى يحكمه . وهكذا يفعل في كل قطعة من ملابسه فلا يفرغ من هذا التأنيق الا وهو يزري بقضيب البان . ويقول في نفسه انا الانسان . في كل زمان . فقلت ومن هؤلاء ؟ قال المتشبهون بهم من أهل البلد . في احترام يوم الأحد . فبقيت أتأمل ما هم فيه من حلق و نتف . ومخبط و نتف . ونظافة أثواب . وملاحظة أسباب . كأنما البلد منحت بنصر مبين أو فازت بفتح جليل . أو كشف للناس عن حقيقة علمية أو اختراع مفيد أو شيء مما يرغب فيه أو فضيلة مما يحث عليها . اذ أقبلوا يجهزون دواعي السرور . و يقيمون شواهد الانس والحبور . ومن شدة العجب من النظر لتلك الصروح العظيمة . والمباني التي حول تلك السوح الجسيمة . والماء الذي يتجر في وسطها من الفساقى العميمة . وبيوت الحان والملاهي والملاعب والدور المزينة بأنيق الاثاث المفروشة بالخز والديباج . لم أدر كيف انصرف عنها . فقلت لصاحبي ما أحسن ما اريتني وأشد ما أبهجتني !! فقال دع هؤلاء في شغلهم حتى يتموا أمرهم بنصب هذه المصائد . وتدبير المكائد . خلّ اللص يتشاور مع أخيه . في المال الذي يود أن يلاشيه . و اترك صاحب الحان يخلط السم المحلول . في كؤوس الكحول . والقواد يرسم للغانيات كيف يحتلن حتى يسلبن . ويهجرن حتى يغدرن . فانما موعد ما تراه من الزخرف وتفسير ما أبهجتك من الباطل في هذا المأكول والمشروب . قبيل الغروب . وألفت نظرك الآن الى الناحية الأخرى لأريك ما هو أحرى . ففعلت . واذابى مظل على تلك الناحية الخراب وبعد شدة التدقيق . والتجديق . لمحت العين فيها آثاراً تدل على سابق مكائنها في العز ونعمتها في سابق الزمن . قامت فيها المنارات على المساجد . والقباب على الأضرحة . جمعت

أنخر البناء وأرصنه وأتمه . وأمتنه وأظفه وأحسنه . بأبواب وأسوار أقيمت بهندام . كأنما هي سياج على المدينة من الأبهة والجلال . وهي مع هذه المناظر الظاهرة الدالة على العظمة منيت بازقة مستقدرة . لا تكاد تهتدي فيها الطريق . أو تمشي مع صاحب أو رفيق . جرت الاقدار في وسطها . وسرت الروائح الخبيثة في جوانبها . والكلاب العاطلة شغلت طرقاتها . والجمال التي تحمل الأحمال سادة عرضها . والحجارة تنقل الناس والحجارة . والطامة اذ يلتقي الجمال بالجمال . فيتعطل السير والعمل . بين قوم معرضين للاخطار . تحت رحمة هؤلاء السوقية الفجار والدهاليز والخوانيت . لا تنكيت ولا تبكيت

قبور تطل منها أموات الاحياء . في تلك الاحياء . وكثير من دكاكين الباعة على جانبيها اهرام من السلع الكاسدة . والامتعة الفاسدة . والبضائع التي دارت عليها الاحقاب . وقلبتها أيدي الطلاب . ونقلها الخلف . عن السلف . حتى نسج عليها العنكبوت قصورا . وأخني عليها الدهر كثيرا . وصناع تسخت صنائعهم مستحدثات الأمم المتعدنة . وأماها كر الازمنة . وأمام بعض الدكاكين فوارغ لا يبالي واضعها بتضييق الطريق ولا بأذية أبناء السبيل . والاسواق منها ما هو مسقوف بالحجر ومنها ما هو معروش بقطع الحصر البالية تحمل بعضها الاخشاب النخرة . وبعضها الاعواد الرفيعة . والى جانب أولئك مرابط الخيل والبغال . والحير والجمال . هذه بركت باثقالها . وتلك أنيخت باحمالها . والفضلات قدملات تلك الفسحات والدور . ما بين منشور ومنظوم ومنثور . والذباب يثب منها لمهاجمة المارين . وملاطمة وجوه الفارين . كأنما يذودهم عن مؤونته أو يصددهم عن بغيته . والكلاب تنبح كل ذي نعمة لكونها لم تهمد غير الفقراء . وتصول على كل راكب لأنها لم تألف أصحاب النعماء . ومطاعهم من لحوم الجمال

والماعز والغنم . قد أدركها العفن والوخم . التي منها تصد النفس عنه قدارة
الجزار . والشواء ترد عنه رداءة الضحاف ووساخة الخوان . والبقالون والسمانون
والحجازون . يستقدر حالتهم كل ذى ذوق ويعاف حاجتهم كل ذى نفس . تنتقل
الكلاب فيها من مكان الى مكان . ومن دكان الى دكان . يطول مزاحها
بين أرجل العابرين . ويكثر لعبها بين يدي الواقفين . وصيدليات أخذت
الاجزاء فيها من القدم شكلا يخفى تركيبه على بقراط . فالمريض . مسلم الى
الجريض . والمكاتب جمعت كل صغير . جمع التكسير . يجاسون على قطع من
الحصير . وقد ضاق المحل بأنفسهم . فأوقف حركات حواسهم . والناس كأنما لا
نظر ولا روية . ولا ادراك بالكلية . وإنما توجهت لا تجد الا مناظر وأحوالا
تشمز منها الارواح . ووجوههم بالنسبة لا وثلك كأنها ممسوحة بيد الكآبة
يحكم الناظر لها بان التوفيق لم يمر عليها والضيق لم يفارقها . فقال لى صاحبي امكث
بنا هاهنا نقضى بهض هذا اليوم مع هؤلاء القوم لتأمل من حالهم . وتعرف
دواخل أحوالهم . فامتثلت ومكثت . فاذا فى كل حركة بركة . حيث عرفت ان
القوم على شدة ما هو نازل بهم من البلاء . وقلة ما عندهم من البيع والشراء .
لا ينفلون عن الحمد والشكر فى السر والجهر . والذي يبايع منهم النسوة .
يبالغ فى الاحتشام مختصراً معهن فى الكلام . ويكادون لا يبايعون الا بالحلل .
ولا يستحلون فى غيره كسب المال . والناس على سكوتهم وخشوعهم من ركون
ماهم فيه من الانحطاط . ناقصون على الذى أسس فى بلادهم هذا الافراط .
حافظون أنفسهم بأنفسهم قترى سهم كيدهم بينهم . وأمرهم فى يدهم . لاني لم
أجد أحدا من المحضرين . وقف على أحد الزياتين . ولا جيب بانذار . لجزار .
بل كل هذه المعاملات والطلبات راجعة الى كبرائهم وأغنيائهم . ولم أرينهم

أجنيباً الاشاريا . لا ساخطاً ولا زارياً . يفتخر في المنتديات بما يأخذه منهم من العاديات . فصرت أتقد هذا الحال . واتطلب السبب الذي أدى بهم هؤلاء الناس الى هذا المآل . حتى أذن المؤذن لصلاة الظهر فقامت الناس من مواطنهم الى مساجدهم . وأدوا الصلاة بالجماعة . بكمال الطاعة . ثم عادوا واشتغلوا بأمرهم . فمنهم من تدارك لوازمه من السوقية المارين . ومنهم من أخذها من الدكاكين . والسكل لا يتعدى الطاقة . إما من القناعة وإما من الفاقة . وهكذا الى صلاة العصر . فلما أذن صلوه . والذي فعلوه بعد ذلك فعلوه . وأخذوا جميعاً في الشراء والبيع حتى صرنا قبيل الغروب . وجاء الوقت المطلوب . قال لي صاحبي ليس بعد الآن الا أن يأخذ كل من هؤلاء أهفته . ويرتدى جيبته . ويملاً من الدخان أو النشوق علبته . وينظر ولده مثلاً الى أن ينصرف من الكتاب . ويحمله الوطاب . ويصرفه الى البيت . بالسمن . أو الزيت . ثم يغلق الدكان . ويقراً عليها شيئاً من القرآن . للتخفظ من سارق . أو مارق . ويصلى المغرب . حيث تدركه . ثم يذهب الى البيت . وهو ينشد هذا البيت

ولبس عباءة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف

فدعهم الآن والتفت الى الناحية الاخرى . ثم لفت وجهي بيديه . فاعدت النظر وأرجعت البصر واذا بنهر عظيم . مد عليه جسر قويم . جمع ضفتيه بطرفيه . تسير فيه المركبات . تحمل بدورا هالاتها القبعات . وما أدراك ما العقبات تيجان جمعت أزهير الرياحين . بجميل الصنع لا من أصل التكوين . فاستغنت عن أيادي النبات . بأيدي البنات . جمعن فيها اقحوانا كالشغور . وغرسن وردا يفاخر خدود ربات الخدور . ونسقتها بزهور لم يسقها الوابل الهتون . بل سقيت دمع

الشجي المفتون . حكمت احاسن الزهر وفضلته بيقامها الشهر والدهر . ان فاتها
أريج الروض فقد عوضته الغانيات بطيها . او عدتها الفصون فهي على مثلها من
قاماتها . من كل هيفاء تفضح البدور في لفتاتها . وتسي الظباء في فلواتها . جوالس
أو انس . ضواحك غير عوابس . وقد اقتفت اثار هذه المركبات مثلها سائر
مسرعات . حملت من جماعة الشبان أولئك الذين مزقت تربيتهم التقاليد . الذين
أوقفوا انفسهم لعشق الجمال . وطلب الوصال . وقلوبهم تسبق الجياد . لنوال المراد .
والعيون حيرى بين الجمال . والدلال . والافكار حائرة في هذا الحال . في سوق
قامت لبيع المهجات . للأعين الناهبات . وقد أخذ كل شاب مع رفيقه سر
أحاديث الحسان . وانه على موعد من تلك التي هي امرأة فلان . وليس منهم الا
من يتناهى بما هو فيه من الصقال ليظهر بمظهر الجمال لربته . ويفوق على من
هو في صحبته . كأنهم في ميدان التخث يتسابقون . وفي حلبة التأنث يركضون .
وأولئك يلحظن باللحظات . فتثبت لها العقول الثائرات . ولسان الحال ينادى

صاح فانظر لاي حال نحور أنساء رجالنا أم ذكور

وبين هؤلاء العادات . من تزيابأزياء المسلمات والشرقيات . بحال تصعب
النفوس مشاهدتها . لشدة ماهن فيه من التهرج والتبرج بالزينة حتى
فاقوا الاجنبيات اللواتي قلدنهن وما زان في جيئة وذهاب . واتخاذ وسائل
وأسباب . حتى بلغت المراكب الالوف . بعضها يتنقل والبعض وقوف في
الصفوف . حتى كأن تلك المروج النضيرة والبساتين سماء كواكب .
زينت بهذه المواكب . ثم أخذت تلك الجماهير في الانصراف . عن تلك
الاطراف . حتى خلت البقعة من الهوادج والغانيات . وتبدلت حالتها وسبحان
مبديل الحالات . فقلت لصاحي ماهذا العيس وما هذا السفر . والقوم لم يفارقوا

الحضر؟ فقال هذا ميدان مغازلة. لا ميدانه منازلة. وعراك لبلوغ الاوطار
لا لاستيطان الاوطان. واجتماع لفيح جميل. لا لفتح جليل. وانتصار على العقل.
وتحالف مع الجهل. هذا ميدان يجمع انف الغيرة على الحريم. ويفتك بكل
خلق عظيم. هذا ميدان مغازلة. يجر الى مقابلة. تفضى الى مقاتلة. فقلت وكيف
وصل تبهرج النساء المسلمات في هذه الديار. الى هذا المقدار؟ قال ان حركة
التقليد السريع ساقط الطبقة العليا وما يليها من الامة الى محاكاة الافرنج في
كل الاساليب. والحجاب يهتك فيها بالتدريج حتى صار الى ما ترى من الابتدال
البعيد عن الدين ومذاهبه الا من عصم الله من بقايا العائلات القديمة الذين
ألتجهم التريبة الاولى وفي بيوتهم شيء من الدين. أو من كانوا حين دهمت
البلد هذه البلايا فارقوا عنفوان الشيبية فكبروا عن التقليد الجديد ولم يتبدلوا.
وقد سري هذا الداء حتى دب دبيبه في بيوت الشيوخ والمنتمين الى حماية
الدين وظهرت بوادره فاسأل الله أن لا يريك أواخره. قلت أمين

قلت ثم هم الى أين منصرفون وكيف هم عن هذه الناجية ناحون؟ قال
الى حاضرة البلد لقضاء بقية الليل فتابعهم بنظري. وما شيتهم ببصرى.
فتفرقوا شيعاً فمنهم من قصد دور السكن. ومنهم من توجه فيما بيوت تلك
المحن. وجانب البلدة قد اتقد بالانوار. التي قامت مقام الشمس والاقمار.
فلا ليل ولا نهار. ولا أصائل ولا أبار

كهربية أسعد بها تحفة جاءت الى الشرق من المغرب
دنت الى الارض ومن حقها ان لاتداني نازح الكوكب
وتلك الملاهى التي وصفناها. والمعاني والحانات التي ذكرناها. تعددت
فيها المشاهدات. وتناهدت فيها الغايات. ووجد فيها كل ما يتمناه الانسان ويشتهي

بحيث تفنى الشهوات ولا تفنيه . وزادت بهجتها بسر الاجتماع . فتناهت فيها
مناظر بدائع الصناعات . فأما نظرت نظرت عجباً مدهشاً . وإما رأيت رأيت
بديعاً منعشاً . الرجال في حللهم الفاخرة . والنساء بجلبها متفاخرة . وكل جماعة
في تنوع ملابسهم في الحسن واتفاق في الزى كصحة الورد أشكالاً وأواناً
وكالبستان روحاً وريحاناً

فينا أنا أعجب . من هذا الموكب وإذا به يشير على بالتطلع للناحية
الآخري ريثما يصلح بعضهم من أمره ويعكف كل على شأنه . فأجبت
ونظرت فهالني ما صرت إليه من الظلمة بعد ذلك النور . ومارأيت في تلك الدور
بعد هذي التصور . فإن ما فيها من أدوات الاستصباح لا يتعدى نوره محيط
جسمانه . ولا يزيد على إضاءة أركانه . فدقت النظر فإذا بعض القوم في منتهى
العشاء . وبعضهم في مبدأ صلاة العشاء . فانتظرت حتى فرغوا مما هم فيه
ومنهم من غلب عليه حب البقاء مع أهله فجلس يحاكيهم وهم يسمعون .
ويحاكيهم وهم يطربون . أقاصيص لا تخرج عن حد اللهو البسيط والفكاهة
المقبولة . ومنهم من انتقل إلى دار بعض أخوانه . وقد سبق إليها غيره من
خلانه . فاجتمعوا يوثأس بعضهم بعضاً ويؤدي ما يحسنه من أسباب الخلاء
لا نشراح النفوس وسرور الخواطر وشرابهم القهوة ونقلهم الدخان حتى إذا
مضى من الليل بعضه تسلل كل إلى منزله ومكانه . بعد أن قضى ما يجب عليه
لاخوانه . ثم أغلقت الدور على من فيها وبقيت تلك الناحية وليس فيها من أسباب
الملاهي إلا القهاوى التي يؤمها أرباب الأشغال والوظائف الليلية كالفقهاء
والمؤذنين وأرباب الدرك للاستراحة وقطع الوقت . ولهم في بعضها شاعر
يسمعه بعض الأفاضل الموضوعية كمنثرة وأبي زيد وهم من سماعه

منشرحون . وعن غيره من الملاحى لاهون . ومع قصر تلك المجالس المنزلية .
فانها لا تخلو من فائدة دينوية . أو مزينة أخروية . فقلت فى نفسى حبذا الحال .
وإذا بصاحبى يدعونى للاثفات . لتلك الجهات . فحولت نظرى فرأيت الامكنة
خفت من أولئك الا جانب الا القليل من ارباب المقاصد الذين لم يقضوا
وطرهم الذى هبأوا أنفسهم اليه من قبل . وانما يعمر تلك الملاهى أولاد
السادات وقد خرجوا عن حد النشاط والانبساط . الى الافراط . حتى ان
الناظر اليهم يقول ان الحمر اذا لم يحرمها الشرع . لحرمها هذا الطبع . وقد عكف
كل على شأنه وهو مهتك فيه . ويحصرنا على تلك الملابس التى كانت جميلة .
والهيئات التى كانت جليلة . فن رداء مهذول . على بدن منحول . ولسان لا يعلم
مايقول . وانسان بعد ذلك التهذيب يصول . وامامهم تلك السموم التى افرغها
صاحب الخان فى كووس الحمر . بل الحمر . وقد أصبحوا ضحكة الرأح والغادى .
ومثلة الملاح والحادى . يسأمهم من كان يألفهم ويهجرهم من كان يهواهم . ثم
بعد حسو تلك الافداح . بالقاتل للارواح . سار بعض هذه الجماعات . الى بعض
المنازل الشاهقات . وهى التى اقيمت للمقامرة . لا للمسامرة . منازل نواب
النازلىن بها الفقر والسهاد . ونصيب الفاتحين لها اليسر والعتاد . اختصر واللقوم
الحياة عن قرب . فاما عدم فى دقيقة فاتحار . واما غنى فى ثانية فيسار . تراهم
جالسين على موأد منتظمة الوضع وعليها أدوات الميسر على طرائق اللعب
المتحدة الاصل . ثم تقرب السهام . وتقاسم الازلام . وإذا المال يقول
الفرار الفرار . والدينار لاتصافه اليمين حتى تودعه اليسار . بعد أن يبقى
على الوجوه من آثاره لون الاصفراء . فكأن الورق اذ يدار . نجوم الفلك
المدار . فى بعضه الشفاء وفى بعضه البوار . واحداق العيون تقلب فى دائرة

الحسرات . وتعد دوائر الساعات . لانظر لها الا ذلك المال الموجود . المفقود .
وحالها حول لونه الوهاج . حال الفراش حول السراج . وصاحب المكان .
شقيق صاحب الخان . لا شغل له الا تلطيف بعض تلك الحالات . بتقديم
الكؤوس من العقار . لينسى اللاعب ألم بيع الدار والعقار . والقوم أصابهم
سهم القدير . لا يتهمون ولو جاءهم من الايام ما فيه مزدرج . يلحظون بعضهم
بعيون كأنها كأس خمر . ترمى بشرر كالتصير . كأنما حشوها جمر . ثارت بينهم
الثارات . ودارت كؤوس الحسرات . غرهم مالاحت بوارقه في ظلمة العيش
وظلمت بوادره من شدة الطيش . فجأوا بالاموال الموروثة حتى اضاعوها
ثم أخذوا يقترضون ويلعبون يرجون المنفعة من وجه الضرر . حتى اداهم
الحال ان صاروا عبيدا لهؤلاء الزمر . ووضعت الاجانب يدها على العقار
والديار وأصبحت عاملة على رهنه إما باسمه أو باسم البنك القائم مقام
كثيرين منهم . ولم ينبج أحد من هذه المظاهر الا القليل . وما زلنا ننظر هذه
المنظر . التي تدمى عين الناظر . الى ان تضرم الليل وانصرف كل الى مكانه
اما بالخسائر الفادحة واما بما يظنه الجاهل مكسبا وهو جزء من ماله المستلب .
وكيف لا يكونون كذلك ومبلغ علم الواحد من هؤلاء الجهلاء خبر جواد
مطهم اشتراه . وآخر باعه أو اباه أو حظية عشقها ورافقها . أو أخرى خادعها ونازعها .
أوسرد تواريخ ليال السرور . وساعات الجبور . التي أحيائها وحىء فيها من
الأمانى التي هي في الحقيقة منايا والتعريف بمقدار النعم التي رقع في ساحتها
والمنح التي منحها حتى ذهب فيها مقدار من أمواله . مسكين ليس له نصيب
من بركة عقله وصفاء ضميره . سىء لانه ابعده ما يكون من علم وعمل . وأسأم
ما يكون لفائدة تعرض عليه ولو انها جليل . فلاحظهم بنظري حتى وصلوا

اليوت وهم في سببات من هذا الحال . فمنهم من أوصى بتعريف كل سائل
(بأن البك سافر لطلب مستعجل جاءه من وكيل أشغاله بالتغراف) ومنهم من
أوصد الباب . وسد باب السؤال والجواب . ومنهم من لم ينم حتى نطق السائل .
واحكم الوسائل . لبعض اخوانه يطلب شيئاً يسد به هذا العوز . ومنهم من
أتم ليلته . في التشاجر مع حليلته . يحتال عليها ليأخذ شيئاً من حليها وهي بما اعتادته
معه من كذبه . وقلة أدبه . تمنعه . وتدفعه . ومنهم من اضطلع قليلاً وفكر
كثيراً حتى عزم على ان يقصد أحد ارباب البنوك فيحتال بتقيل الأيدي
والأقدام لينال ما ينال . وهذا ونساء البيوت تشكوماهي فيه وتستجير فلا تجار .
باتت على وسائد السهاد والانتظار . واصبحت على اخبار الخسران والافتقار .
عار وأى عار ان ينزع السيد بيذه حلياً ألبسه لاهله . ليبيعه لسد حاجته يده
فيما هو ليس من اهله

ذكر في بعض الاقاصيص : كتب كلب الى كلب أما بعد يا أخي أدام
الله حراستك ان من بنى آدم قوماً تسافلوا الى حد ما عليه من مزيد حتى
أصبحت انا وانت بالاضافة لهم معن بن زائدة وطلحة الطلحات فارتفع في
المجازر واصعد على المزابل وارفع ساقك وبل على من لقيت منهم والسلام
ثم تركنا هؤلاء على حالهم السىء ونظرنا نظرة الاجانب اللذين كانوا
معهم وفعالوا مافعلوه تقليداً بهم بل كانوا يحثون أمراءنا على فعل مافعلوه جبراً
ويضحكون سرا فاذا هم نائمون على انهم بال . وأتم راحة وأفضل حال . لانهم لم
يستول عليهم الهوى بحفته . ولا الضلال بجملته . فاقاموا اقاموا والخدم صاحبهم
والعقل غير مفارقهم . فلم يجروا البلاء لانفسهم بايديهم . ولم يغوهم شيطانهم
ويعنيهم . ولا فات أحد منهم درهمه . ولا أضع الوقت الذي قرره ورسمه . ولم

يجهل في أي موضع يضع قدمه فلم يعمر ذلك المكان لآخر الزمان الاسادة
الوطن ولم يتركوه الا بعد ان ادركهم العطب والعطن وأحرمهم مذاقوه من
البلاء لذة الوسن. وأعجب من ذلك ان اولئك الاجانب في شبه المحجور عليهم
لانهم مضطرون بسبب أشغالهم الى عدم الخروج لهذه المنازه على الدوام الا
في هذه السويكات في مثل هذا اليوم يوم عطلة العمل عندهم. ولكن الامر
مدبر بينهم معلوم لهم ماسيكون لهم وعليهم فيه. ولم يؤثر فيهم طول الاحتجاب
عن مثل هذه الملاحى ولم تدعهم حالة الشره الى الميل مع الشهوات ولم يتجاوزوا
موعدهم أبداً ولم يخلفوا مع أهلهم عهداً. والذي سكر منهم أو قامر لم يسرف
في شىء فوق طاقته ومنهم من لا يخرج الا بعد أن يرصد ما سيقضيه صباح
يوم الاثنين من بعض أولئك المدينين فيعقد معهم العقود. ويقوي اليهود. وهم
يحمدونه على انه لم يتركهم وقت الشدة. ولا نسى عهدهم زمن الضيق. بل
منهم من يعين أولئك الخاسرين بماله في ذلك الوقت وهو متطلع الى الدرهم
فضلا عن الدينار محتسبا عليه ذلك بما يريد ويشتهى من الفوائد الجسيمة.
والارباح العظيمة. ثم تركنا هؤلاء أيضا في استراحتهم وحوّلنا النظر الى
الجهة التي يدعون انه تم عليها القدر بالخراب. فوجدناهم قضوا ليلهم لباسا.
ليقضوا نهارهم معاشا. وقام الكثير قبل صلاة الصبح فأدوا فرضه: البعض
في بيوتهم والبعض في بيوت الله. ثم ذهبوا الى دكاكينهم ففتحوها وجلسوا
يبتغون فضلا من الله ورزقا حسنا.

فأخذت صاحبي الى ناحية في تلك الناحية وقلت بحياتك فسرلى ما أنا فيه.
فقال هو نتيجة التقليد الاعمي وأخذ كل قبيح. وترك كل مبيع. حتى أصبح
السادة عبيدا. والعامه قادة. وأصبح جميع الاهلين لو وضعوا مع الاجانب في

الميزان لكانوا في كفة الخسران. هل تصدق لو لم تر - وقد رأيت - أولئك عصر النهار. على تلك الابهة والوقار. ان يؤول بهم البوار الى هذا الحال؟ كيف كنت تري تلك الزينة. وكيف تشاهد الآن هذه الوجوه الحزينة؟ انقلب وردها بهارا. وبشرها انقباضا وازورارا. هذه الطائفة التي نشأت بين عادتين وتربت بطبيعتين. أصل الفطرة والسجية. الموجبتين للتسامح بالكلية. والادب الجديد. أدب النش والتفئيد. فضاخوا بين الضدين. وأصبحوا مأكلة في لمحة عين. سافروا الى تلك البلاد ليجتلبوا منها الخير لنا ولهم. وليتشبهوا ان لم يكونوا مثلهم. فعادوا فاسدي الاخلاق. حاملين الى البلاد مالا يصلح لها. ذلك انه لامكره لهم هناك على تعلم العلوم. ولا رادع لهم اذ ذاك عن التخلق بكل خلق مذموم فقاءهم طيشهم الى ارتكاب كل منكر وفساد وأحوجتهم الحالة الى التشبه بأدابهم ومنهم من لازم الاجانب في هذه البلدة وقال لمن سافر سأدرك قاعدا ما أدركته مجاهداً فدخل البيوت ولازم النوادي ووقف نفسه على رضاهم فدهم الكل داهم الشهوات وأصبحوا لا ترشدهم خطوبهم. الى عيوبهم. ولا يتحاشون شيئا دون نيل مرغوبهم. آخذين بمعايب الاجانب. متشبهين بهم من كل جانب. داخلين في غمارهم. نازلين في ديارهم. وهم يستلبون منهم كل ثمين والحكومة مغضية عن كل ذلك. مغمضة أعينها عن أسباب المهالك. تترك الاموال تنجر الى البلاد الاجنبية مندفعة اندفاع المياه في التيار. تخطف وتواري قبل ان تلحظها الابصار. وكأنما الكبراء فيها يساعدون الاجانب على سلب أموال الوطن وهم لاهون بما بين أيديهم من أسباب الترف والنعيم لا يتفطنون لما يأخذ بجسم الامة من الانحلال ويعتري ثروتها من الاضحلال ولا يتحمسون لدرى غارة الاجنبي عن كنوز البلاد فالحكومة لا تدخل في

هذا الامر أصلاً كأنه لا يعينها فقر أولادها الذين مات آباؤهم في خدمتها للحصول على رضاها. فانتهدت أموالهم بهذه الصور التي رأيتها وأصبحوا الآن ولا خصم لهم إلا العادات القديمة يريدون ملاشاة وجودها والعبادات الدينية يودون اطفاء نورها. جهلوا الحياة الشخصية. والسيادة العمومية. فأعدموا وافتقروا. وهدموا ودمروا. وضلوا وكفروا. وتلبسوا بالجرأتم. وسهلوا المآثم. وثلوا عرش أملاكهم. وسسعوا في طريق هلاكهم. وكل هذه الجهات التي أعجبتك لطفها. وهالك ظرفها. هي القصور التي تجرد عنها الوارثون. وأضاعها الأهلون. وصارت الى غيرهم بسوء تدبير هؤلاء الشبان. وان الانسان ليتقطع قلبه حزنا اذا اطلع على بقية ملاكها. وفيهم صنية كالقراخ أو أرامل غفل من صون الحجاب والاتقطاع الا عن أهل لا يعلمون من أمر هذه شياً ولا يفيقون من غفلتهم الا وقد حضر محضر البيع وجردهم عما يمتلكون ويصبحون وهم في دار الذل من سوء ادارة ذلك الولد المحبوب الذي اضاع ما اضاع في شهوره. فهل ما أنت فيه هو العمار. أو تلك الناحية التي عليها مسحة التعاسة والأخطاط المشوهة المنظر والمندام احياء الوطن المنحط وأهله البائسون تركوها على هذا التشويه الظاهري تصون البنات وتحفظ الشرف وتستر العورة ولا تبدى السوأة وتخفى السيئة وحسبك ان كل دار هناك لصاحب الدار وكل قصر هنا معار وقد أصبحت هذه البقعة وهي لا تتجاوز الافدنة تاً كل خمسة ملايين من الافدنة التي هي اطيان القطر ولا تظهر فيها وتأتى على تركات الامراء فان اغلبها تصفى في ارجائها فكانها على حد قول ابى احمد الهروى

هراة ارض خصبها واسع ونبتها التفاح والرجس

ما احد منها الى غيرها يخرج الا بعد ما يفلس

أغرک ماتلقاه من حسن ملبس
ومن عربات غاديات روائح
مناظر أوهام لعمرک کلها
مظاهر تقلید أقيمت بلا نهی
بتها يد الاوهام حتى اذا هفت
ترکنا سجایانا وهما بغیرها
جهلنا نواميس الحياة وانها
تبصر فليس العيش الا معامع
فمن نام عن حق له ضاع وانمحي
قضت سنة الدنيا بهذا فلا تكن

أين أزمان هذه الا ما كن التي تراها الآن مغلقة موصودة؟ لقد كانت
زهرة البلد لا يسكنها الا ساداتها وأمرؤها. وكان ماحولها من ضاحية البلد
منارة لها. وكانت من الطهارة في درجة تقرب من طهر المساجد والمصليات
لا يخلو بيت فيها ليلة من الليالي ولا يوما من الايام من شيء يتقرب به الى
الله تعالى كتلاوة القرآن والحديث ومواساة الفقراء وموازرة الجيران. وكانت
نواديبهم حواضر أدب يفتخر فيها بكثرة الاطلاع والتبحر في العلوم والمعارف.
ثم حكم هذه البلاد حاكم غير الاحوال وبديل الافعال لانه ممن ربي في غير
هذه البلاد ومال الى الاجانب ميلة هوى لاميلة تفرس وانتقاد. فلما استقل له
الامر قلدهم شبرا بشبر وذراعا بذراع. ولم يكن ذلك بتدبر وتبصر بل بالتسرع

الشديد الذي أراد ان يستخدم فيه جان سليمان فضلا عن الانسان وان يستبدل اليوم مكان الشهر والحول موضع الدهر فنقل البلاد والعباد والاخلاق والمعاملات وجميع الشؤون الشخصية والعمومية الى احوال آخر حتى تراكت عليه وعلى غيره الديون والطلبات واستحقت المستحقات في آن واحدا ضاقت فيه عنها اليد والزمان فخرج لهم عما ملك

وبيان ذلك ان اول ما بدأ به من تغيير الحال تغيير السكن وهيئة المعيشة فحبب لقومه ظاهراً واكرههم باطنا على استعمار ضاحية البلد على طرز مخصوص وبناء معهود وشكل مقصود . فخرج الناس الى تلك الناحية يقيمون فيها القصور مرضاة له وفتح لهم باب الاقتراض من الاجانب بنفسه ليهونه على من يعز عليه ذلك منهم . فقامت الابنية بعضها بالنقد وبعضها بالدين وبعضها بثلث ما كان للمالك من ملك أو عين . باع تلك واشترى هذه غبنا . ومنهم من ارتبط بشروط . ومنهم وهم القليلون من الخاصة من ساعده حائلة اليسر على عمل ما أراد فبنى وشاد . ثم لم تزل الايام تتقلب بها وباهلها حتى انقلبت هذه الجهات مستعمرات أجنبية . وكذلك العالم يستخدم الجاهل والعاقل يسلب المجنون والبسطاء يضعون بين التزلف والاذلال . فكان ما كان من هجران تلك المنازل القديمة لانتقال أهلها في أثر اصحاب الجاه ليتقربوا اليهم ويعدوا منهم لاستحسانهم ما استحسنوه . فعمر من البلد ما كان خرابا . وتخرّب ما كان عمارا . ثم لم يلبث ذلك العمار الموقت ان ضاع من يد أهله بتلك الطرق أو انتقل الى جهة أخرى لاختلاف رغبات الحكام وميل بعضهم للجنوب والآخر للشمال واصبحت هذه الجهة لا يأوى اليها الا من تراه فيها . ثم زادت على الحكومة التكاليف التي

تستأزمها العادات الجديدة من كنس وورش وفرش بالآجر وغيره. وتعهدت بالماء تقريبا الى الاجانب بكل جميل وبخلت على تلك الجهات الاصلية كل البخل فلا تفتح فيها الشوارع التي تصلها بهذه التي تم تنظيمها ولا توصل الى ازقتها الانوار التي يستصبح بها اهل تلك من الغاز فضلا عن الكهرباء بل قدائف رجال الصحة والنظافة من ان يمرروا فيها لملاحظة طرقاتها وغيرها. فالناس ان كانوا في هذا المقت والبلاء فذلك من اثر هذه الاحوال مع ان هؤلاء هم اصل الشعب وخالصة الرعية اللذين يلون الامر بدفع ما عليهم من جميع الاقساط من عوائد واموال مقابل نظام البلدة والعناية بها. ولقد ادى هذا الخال الى رخص اثمان العقار والارض والبضائع والامتعة كما ادى حب التقليد بالناس من جهة اخرى الى ان عكفوا على الاجانب يستحسنون كل ما جلبوه حتى اصبحت بحيث يعسر عليك ان تري احد الامراء والوزراء يستجلب في السنة فضلا عن الشهر شيئا من بلده للوازم داره. فانقطع المدد وتعطلت الاسواق ووقفت الحركة وفسد ما كان موضوعا ووضع ما كان فاسدا ولا حول ولا قوة الا بالله

انظر حب التقليد الاعمي كيف دعي الخلق للخروج عن حدتهم وأوجبهم ان يجهزوا على معتقداتهم وعاداتهم وشرفهم واحسابهم وانسابهم. قد استسهلوا الدخول في كل شىء حتى أمر الزواج فترك الناس بنات الاكفاء ذوى الحسب والنسب والتسرى الذى هو نهاية ما كان يسمع به فى التوسع واندفع اولاد الامراء وأبناء البيوتات الى الزواج بنساء الافرنج غير ملتفتين الى حسب أو نسب حتى أصبح الامير يصاهر البنكير واصبح من ابتلى من القديم بزوجة مسلمة فى حسرة على حجابها وعاداتها

جذبهم الاجانب بما كلفتهم به من العوائد الى ارتكاب الديون فخرجوا مما تحت أيديهم من الاموال ونزاعوا ما في صدورهم من الاديان وما في نفوسهم من القواعد والعوائد وكرهوا الغنم وتقاليدهم وتعاليمهم وانكبوا الى بلاد الاجانب يضمن الواحد منهم على أهل بلده بالدرهم ويسمح لأولئك بالدينار

أنظر للخمر وما أدت اليه من البلايا. فقد كان شاربوها منذ سنوات فئة قليلة من كبار أهل المدن الكبرى وكان تجارها على قلوبهم يقطنون تلك المدن فما زال الداء يسري ونهر الخمر يجري حتى امتلأت نفوس القوم بحبه ووفود بائعي الخمر يفتح بعضهم لبعض الطريق حتى سكنوا القري والنواحي والكفور والمدن واصبح لهم في كل بقعة بيت او مخزن او دكان أو كوخ حتى اعتاد الفلاحون واهل البلاد فضلا عن سكان المدن والامصار على شربها وقد كانوا ابعد الناس عنها. وصرت انما تولى وجهك تجرد اعلانات موضوعة بالقوائد المترتبة على شربها. واصبح المصري بقوة التقليد منساقا اليها فشربها واكثر بلا روية ولا تدبير حتى ذهبت الارواح والعقول وضاعت الاحساب والانساب وذهب الشرف ضحية هذه الهدية الغريبة. فلو ان كاتباً كتب ما اعدته الخمر من هذه الجواهر في هذه السنين الاخيرة لكان في ذلك تذكرة لقوم يعقلون

الابوثة خسائرها محصورة ولكن هذه الخمر التي جذبت لها النفوس اوهى جذبتها وتم لها الادمان والانهاك عليها اذهبت من الانسان صفات الكمال والادب والشجاعة والمروءة لا يختلف في ذلك شرقي ولا غربي واصبحت الامة في أسوأ حال كما ترى

هل من طائف في البلاد المصرية وقراها متنقل من بلدة لاخرى
ومن قرية لاخرى ليري بعينه مادة الخمر المنتشرة وشاربيها المهتمكين في شربها
بلاحد لاشرية تردعهم ولا قانون يرجعهم ولا حكومة تردهم ولا ضابط
يحكمهم والبلاد باهلها مسوقة الى الخراب عدا مصائبها المحيطة بها من
كل جانب

انظر الى عاصمة البلاد موضع الحكم والحاكم ومحل القضاء والافتاء
ومنبع القوانين واللوائح تعجب من هذه الخانات المتخذة فيها والخمر المنتشرة
بين اهاليها وتزاحم الشاربين عليها وسريان دأها في كافة الطبقات من الامة
حتى لم يسلم من شربها غني ولا فقير بل استلبت نهى الكل حتى من كانوا
متمسكين بالمبادئ الدينية والاحكام الشرعية. وبأعوها قد قاسموا الناس في
أرزاقهم وأجرهم بل تعدي ذلك لاملأكمهم وأطيانهم

يعجب الانسان من حال هذه الامة التي كأن الله سبحانه وتعالى نزع
منها عقولها حتى استحل ماهى فيه بل جعلت المحرمات من القربات فان أم
أسواق الخمر رواجها أسواقها في الموالد كأنما أصبحت من ضمن معارض
الخير التي تقيمها الناس يحيون شهاؤها. وكأن الخافة من الله والحياء من الناس
واققاء ملامة الخلق أصبحت لاوجود لها. تراهم كأنما نذروا أنفسهم ليقيموا
أسواق الفساد فيها وأصحاب المكنة وذوى الاعتبار لا فرق بينهم وبين الفلاحين
الا صغر الخافة العراة لان الكل جالسون وامامهم قذاني الخمر مع ان أغلبهم
لا يعرفون لها طعاما ولو سأل أحدهم سائل ماذا تفعلون لقالوا نفعنا نفعنا
الامراء والسادات

اغفلت الحكومة كل واجب في هذا الامر وتجاهلت عن كل حق عليها

للأمة وتبرأت من ان الاهالى هم اولادها وهى المسئولة عن صحة الشعب
البدنية فضلا عن الجواهر العقلية التى أشد مفسد لها شرب الخمر وستبقى
الحكومة ساكنة حتى تسمى حاكمة على طائفة من الخلق الواحد منهم اما
مجنون بالفعل أو فى حكم المجنون

فقلت لصاحبى واين مستقر هذه الحكومة وماهى صور هؤلاء الحكام.
والى أى طريق من طرق الحكومات ينسبونها فان الروح بلغت من حديثك
الخلقوم . أيحك هذه البلدة أعداؤها حتى اختلفوا فى المشارب والمنازع كما اختلفوا
فى الهيئات والجامع . واذا كان فى كل ملة سادة أعلام هم مصابيح دينها .
ونباريس يقينها . ونجوم ارشادها . ورجوم الحادها . ونصراء حقها . وحلفاء
صدقها . فأين علماء ملتكم . يهدون هؤلاء المارقين ؟ واين حكامكم يمنعون
الضالين ؟ فقال لا تعجل فقد اقتربت الساعة التى أريك فيها هيئة الحكومة
ومحل حكمها . وصفة حكماها . وكيفيه أحكامها . فانهم الآن يتهيئون لتشريف
دست مناصبهم وأراك سعيدا لأن اليوم يوم الاثنين ولهم فى مثله وفى يوم
الخميس من كل أسبوع اجتماع تقضى فيه مهمات الشؤون فى جلسة فيها مدار
محاضراتهم . فانتظر وعمما قليل ترى القوم مجتمعين . ثم تراهم فى مناصبهم
منفردين . فتقف على حال الوظائف والمناصب وأرباب المقاعد والمراتب الذين
تقام بهم حدود الأحكام . وتفتخر بذكر أسماهم الأعلام . وتستقيم بهم الامور .
ويتوقف عليهم نظام الجمهور . وتشرق بهم أنوار العدل . وتتجلى بهم اندية
الفضل . بل هم سادة الاقطار . وقادة الافكار . وساسة الامم وأرباب السيف
والقلم وأهل الرئاسة والزعامة . وأولو العزة والشهامة . وتنظر كيف يحكمون .
فقلت عجل لى لارى هذا الحال فأشار الى بان التفت . فاذا دور فى طبقه

الوسط قليلة الخدم والحشم. عديمه المظهر الواجب ان يتخذة أمثال من وصف لي من الحكام في مدينة مثل هذه المدينة وعلى أبوابهم عرباتهم لم تزد شيئاً عن غيرها من المعتاد. بل ربما قلت من جهة التعهد بالنظافة. فقلت لصاحبي لعلك أخطأت الامكنة وجهات مساكن هؤلاء الاخيار؟ قال لا. انما هؤلاء يتشبهون بالاجانب من كل جانب حتى في المسكن. ويود أحدهم ان لو اتسع نطاق التقليد بأكثر من هذا فينتقل الى نزل عام فيكثري فيه ناحية يقيم فيها هو ومن يتبعه أو قسماً من منزل مشترك كما تفعل الغرباء عندنا ليخلص من ورطة البواب والحجاب ويستريح من معاش السفر جى والفراش. ولا يبالون بان طوائف الخلق وعامة الناس هنا يهزؤون بهم من هذه الاحوال فاصبحوا لا يرهبونهم لتجردهم عن مظاهر الأبهة الواجبة للحكام. ولا عجب فانهم قصار العقول بعيدون عن ادراك ما وراء هذه المشاهدات. ألا ترى ان الله عذب بنى اسرائيل بالعذاب العاجل لضعف عقولهم واحال العرب على العقاب الآجل لبعده مداركهم؟ ألا ترى ما تفعله مع الطفل من الضرب والاذى على اثر الذنب الذي يقع منه وما تتوعد به خصومك من الرجال؟ هؤلاء ظنوا العالم سواء فاحالوهم جميعاً على القانون فنسخوا الخشية والرهبة من القلوب وتصوروا ان ذلك منتهى العدل الذى يمكن أن يجوز وقوعه في بلاد أخرى. فقلت عجباً وأي عجب! ثم بعد قليل خرج هؤلاء السادة من قصورهم ولا خروج البدور من آفاقها. فتاملتهم فاذا بهم وصلوا في الملابس لحد البساطة حتى أشبهوا كل انسان وأصبح كل انسان يشبههم: لباس قصير فوقه رداء صغير استدى خفة الحركة في السير فأسقط عظمة القدر والحشمة وأضاع أبهة الحكم ووقار المنصب. ثم ركب كل منهم وسار مستنشقا للهواء على ضفاف نهر يقرب

من تلك المنازل تشجيعاً للأفكار وتحريكاً للطباع . ثم عادوا قاصدين دار الحكم واحداً بعد واحد . وهو على ما يراه الناظر محكم التشديد . متقن البنيان . مهندم الأركان . فاجتمعوا في محل أوصد بابه . ووقفت عليه حجابة . وصاروا يتراطنون . فقلت لصاحبي ما هذا فاني لا أفهم من كلامهم شيئاً . فقال ان لكل من هؤلاء مضاربة في ربح وشركة في مال وتداخل في تجارة فهم يتكلمون الآن في خاصة أنفسهم من جهة ذلك . فقلت ظننتهم ظنوا شيئاً أزعجهم . أو توهموا تغييراً في السياسة العامة فهم يعدون الجواب للمراوهِ . أو ان لديهم مشكلاً يفحصونه ليقفوا على لبه ليناضلوا عن الحق بالحق . ثم لم تمض لحظة . الا وقد دخل عليهم شاب يطير نشاطاً فحياهم وحيوه . ثم تبعه آخر وآخر حتى تمت الهيئة من الحكام ومستشاريهم وأخذوا في المذاكرة فأخرج كل واحد من أولئك المستشارين ورقة كانت معه . فيها مارآه من المشروعات الجديدة في نظارته وما يريد ان يقرره من الاجراءات الجديدة . وهكذا فعل الثاني والثالث حتى انتهى العمل في أقل من لحظة بالتصديق عليه . وأمر برفعه للحاكم الأكبر لاقراره وتنفيذه . ثم أخذت الحكام تبدي الشكر . لمبتدع تلك الاصلاحات ومخترعها ومقترحها . والقائل بها . والحكومة بما وقع في هذه الساعة من هذا الثقلين وما تقرر فيها من هذه اللوائح فقدت نفوذاً كبيراً . وخسرت مالا كثيراً . وانحطت شيئاً عظيماً . واستلب من يدهؤلاء كثيراً مما كان في سلطتهم . ثم انصرفوا كل الى دست وزارته . فكادت أصعق وقلت : لا أول من ان يقفوا امامهم موقف المناظرة كل يبدي برهانه حتى اذا ما انتصر فريق رضىخ اليه الآخر؟ قال كلا . ولا هذا لان آدابهم تمنعهم عن الظهور بالرأى امامهم . قلت أيعلمون ما فعلوه أم يجهلون ؟ فقال بل يعلمون

ويستتون . وأشار الى بأن أتبعهم بنظري ففعلت . واذا بهم في تلك المراكز
صور لتصحيح الشكل . وكل مستخدم سواء كان في المراكز أو الفروع
مستشعر بهذا المعنى . واذا الخطابات والجوابات ذات البال صادرة أو واردة
جميعها واردة على ذلك المستشار لا يفتى فيها غيره . وناظره منذ لما يقول
قاضي بما يأمر . وكذلك الترقيات والتعيينات والتنقلات وبالجملة كل ما ينع
أو يضر بالمستخدمين أو بغيرهم بيده يفعل فيه ما يشاء . والامة قد أدركت ذلك
فتقاتلت على أبوابهم تلتبس منهم قضاء أمورهم . وقد أصبحوا بما وهبهم
أمرؤنا من النفوذ يقيمون الناس ويقعدونهم . والناظر كما قيل :

الارض تعلم انه متصرف من فوقها وكأنه من تحتها

أمير في منصبه لا تصدعه عامة الناس . ولا يخالجه أدنى وسواس . يلعب نهاره
في سبخته . أو قلب في علبته . لا يهمه الا قضاء سويقات الاجتماع مع أولئك
المستشارين على خير . لا يعرف طعم البوس . ولا خشونة الملبوس . يرتاض
طرفي النهار . على شطوط الانهار . وينام الليل مع الحور . بين التراب والنحور .
وينصرف عند المقييل . الى العارض الهطيل . في ظل ممدود . وطلح منضود .
وماء مسكوب . لا يعنيه من ليس يعرف لنفسه قرارا . ولا يذوق النوم
الا غراراً

تقارع أبطال ابن خاقان ليله الى أن بدا الاصبح لا يتعلم

فيصبح من طول الجلال مخبلاً وكان قديماً دهره يتنعم

وقد وسعوا لهم المجال فاتخذوا لانفسهم لمعالجة سامة البطالة عنهم
حرفاً غير هيئة الحكم والحكام . فدخلوا في كل شركة بسهم وفي كل جمعية
بقسم . وقالوا في انفسهم : قد فاتنا عزة الحكم . ونفاذ الامر . وصوله الخاتم .

فلا تفوتنا الثروة. فقيهم المتجرون والمزارعون والمراحمون. والمرتهنون. والدائنون
والحكومة كأنها تراث رجل مات عن قصر تلتقنه أيدي الطامعين من كل
طرف فهما وجدوه أخذوه

قلت ويحك ما هذا الذي أراه؟ قال هذه هيئة الحكومة. قلت يا للعجب.

قال لا تعجب فمتى عرف السبب. بطل العجب

اعلم ان الحكم في هذه البلاد كان لحد سنة ١٨٧٧ حكماً استبدادياً محضاً
يرجع فيه لرأى الحاكم المطلق المتولى عليها. وانت تعلم ان الحاكم المستبد يمتنع
بوجوده أمور ثلاث هي من أعظم أسباب ترقى الأمم. أولها. الظهور بالرأى
خشية أخذ القائل بما قال. وثانيها الظهور بالاجتماع خشية تفريق القوم. وثالثها
الظهور بالمال خشية المصادرة. وقد ابتلاها الله سبحانه وتعالى بنفاد قدره
وقضائه بحاكم مثل فيها هيئة الاستبداد تمثيلاً جمع عليها به صنوف البلايا
والاكدار حتى أدى مافيه من القسوة والسطوة لخوف أرباب النهى والأمر
منه أركان دولته عن التعرض بالنصيحة اليه فضلاً عن عامة رعيته فعدمت
الأهالى في مدته أسباب التقدم الحقيقى ولم تتمكن من ان تتخذ لها طريقاً
للإصلاح فى حين ان كل أفعالها كانت مؤدية للهلكة وصرورتها الى الخراب
الذى صارت فيه الآن فهو الذى أكره الناس على الخروج من ديارهم
والتشبهه بالاجانب من كل جانب. وهو الذى أدخل فى البلاد عوائد غيرهما
وحمل اليها مائيس منها وأزال عنها ما كان فيها فاضطربت ولم تستقر على
حال. وهو الذى حسن للامة هذه التقاليد وفتح لها باب الاستبدانة
والاستقراض الذى مكن الاجانب من أموالها وأملأ كها. وهو الذى أزال
خيار الادب عن الوجوه وساعد على انتشار الموبقات من كل طرف

وأجرى بحور الخمر وسير مواكب النساء متبرجات في عموم المنزهات حتى فسدت الاخلاق وتقطعت روابط الادب والحياء . وهو الذي خرج البلد وأهله الى هذا الحال الذي تراه يسر الجاهل مرآه ويحزن العاقل منتهاه

أمور تضحك السفهاء منها ويبكى من عواقبها اللبيب

وقد انتهى أمره بأن أكرهه الدائون الذين أصبحوا ملاكاً على دفع ما عليه فلما ماطل اضطروه للاستقالة وقد كان فور تناعنه فيما أورثنا هذه الهيئة بالاساس الذي وضعه باجماع آراء أصحاب المال والنقود في سنة ١٨٧٨ وتركبت هذه الهيئة من تسعة رهط يفسدون في الارض ولا يصلحون منهم واحد تضاف اليه الرئاسة . والحاكم الاكبر يحكم بهم ومعهم وجعل لكل نظارة فروعاً فجمعت هذه الهيئة أوصال البلد . فمنها نظارة تتبعها المديرية والمحافظات . ومنها ما يتبعها محاكم متعددة تحكم في درجات مختلفة . ومنها ما يتبعها الجاسوس وجند البلاد . ومنها ما يتبعها بث العلوم والمعارف والفنون والصنائع . ومنها ما يتبعها التحدث على الاراضي من جهة الري والسقي وفتح الخلابان والترع . وهذه الهيئة هي موضع الامر والنهي في كل هذا فالقايض عليها قابض على جميع تلك الفروع بحيث لا يقع فيها الا ما يريد

فلما تولى بعده من تولى أبقى الادارة سائرة على هذا الحال وزاد في التجيب والتقرب الى أولئك الاجانب بان ضمن تنفيذ مقاصدهم سياسية ومالية بلا معارضة وأراد التقرب لهيئة الامة ليقال انه مخالف لعمل من قبله فنع الحجاب وسهل المواصلات بينه وبين رعيته ورفع الكثير منهم الى المناصب بالرتب الرفيعة . وأبطل قاعدة القضاء القديمة وقطن لها القوانين المنتزعة من

الدول الاجنبية

وأباح القول للناس بما شاؤوا فنشأ عن هذا الانقلاب السريع مفاسد
جمة لم يتأت معها الوصول للغرض المقصود كما هو الشأن في كل انقلاب فجائي.
وجاء من منع الحجاب وكثرة التردد انتقاص السلطة والاستهتار بها وسهل
على القوم أن يروا الحاكم ويراهم ويكاشفونه ويكاشفهم والامة على حالها من
النقص لم تفق من صولة الاستبداد الذي صرعاها فطاشت . وجاء من رفعه
أقواما بالشهرة والاستحسان خفض تقاليد الحكومة وألبس التاج من لا
يستحقه . وأصبحت الهيئة كعود قصب السكر أسفله خير من أعلاه . وجاء
من اباحة القول أن قال كل انسان ما يشتهي فاضطربت الافكار وأصبح
الكل أساتذة . والكل أفاضل . والكل مرابين . وقامت بين الكل نقطة
التنافس بالوطنية والتفاخر وهم لا يدورن معناها . وجاء من تقنين القوانين
على المنهج الاوروبى الاستهتار بجانب السلطة والدين بمقدار ما زيد
فيه . وعلم عامة الناس والسواد الاعظم وهم الباقون على فطرة الجهل ونقص
الطبائع ان الحكم أصبحوا مقيدون وانهم معهم أمام القانون سواء فاقترضوا منهم
بما قدمت أيديهم أزمان كانوا مدفوعين بيد الاستبداد القديم على ظلمهم
بعضهم بالحق وبعضهم بالباطل . فاعتزل كبار الامراء والذوات الوظائف لانهم
رأوا من العيب وجودهم مع هذا الشرح في صف واحد . وبعضهم اعتزل
الخدمة مستقيلا . وبعضهم تركها بحسب ضرورة الحال لتغيير شكل الحكومة
ونظامها وبقيت الهيئة في حال أوقع التباين بين الاطراف وأصبحت البلدة أحزابا
من قديم وجديد . وتركى ومصرى وچركسى وأجنبي . ثم زاد هذا الامر حتى
وقعت البلدة في الفوضى التي قضت عليها بالخراب التام العام واستحقت للتأديب
بعضى أوروبا التي استنابت عنها الدولة المحتملة لتؤيد سطوة الحاكم التي

انتقصت أو تلاشت وتعيد النظام فابقت الحال على ما هي عليه مدة من الزمن ثم ترقبت حركات الامة فما تنبس بكامة حتى تزيد في بسط يدها عليها حتى انتهى الامر بأن تغيير هذه الهيئة التي تراها أو عزلها لا يكون. الا باتفاق الطرفين. وبما انهم هم الغالبون أصبحت الطاعة ولاشك مفروضة علينا لهم ولو كان في ذلك مخالفة الحاكم الاكبر ثم مازالوا يتدخلون حتى عينوا لكل هيئة مشششارا: القول قوله والفعل فعله بل أصبح بمنزلة القيم على المحجور أو الوصى على القاصر وصاروا يقضون في الامة بما يريدون بغير ان يظهر او بمظهر الامر أو الحاكم بل يوعزون كما رأيت بما يشاؤون وعليهم الفكر وعلينا العمل وظاهر الامر اننا في غاية الاستقلال حتى انهم رتبوا في البلاد مجلسا دعوه بالشورى عاملوه بحديث (شاوروهن وخالفوهن) فيجتمعون وينفضون والله أعلم بما يصنعون ولا رأى لمن لا يطاع. ويكفيك دليلا على الانحطاط ان أعضاء هذه الهيئة يحضرون لها وهم مجهلون ماسيتداكرون فيه حتى كان ذلك في جلسة اشتملت على الاقرار على فتح بلاد وسحق عباد كالسودان. واني سمعت أشياء من بعض مقررته هذه التي تراها ارضاء لهؤلاء أخبرك بها لتمام عجبك واستغرابك ولتعلم انك لو سبرت غور مشاهداتك وأنفذت اشعة أفكارك الى الاحوال الخفية لرأيت داء دويا وفسادا عنصريا آخذين في ملاشاة وجودها عاملين على اطفاء نورها صار أبناء البلاد أشد أعوان الاجنبي فهم يجهزون عليها ويسرعون في ايصال البلاء اليها بما أشربوا في قلوبهم من العوائد والاخلاق التي جعلت مواطنهم في نظرهم ألد الاعداء وأشد الخصوم. وأصبح الامراء أصحاب الحل والعقد من قديم يتسترون كأنما بهم وصمة وذلك من الاباحة

التي وصل اليها ارباب الاقلام في جرائدهم التي هي على هوى المحتلين وعدم وجود قانون تعادل به هذه الحرية . لانهم يريدون استئصال الجاه القديم سواء كان من بيت الحكم أو اتباعه ليكون الناس سواسية . فان شدت طائفة لا تجدها ملجأ غيرهم إذ لم يبق في الجمهور ذوجه عظيم تتألب الامة عليه . باعوا ممتلكات الحكومة ومهمات وآلات حربها ومعقلاتها ومصانعها ومخازنها والناس صامتون على اختلاف صنوفهم لا ينبسون بنت شفة تعقد الشركات وتباع العقارات والناس رجالان : شيخ قد قنع بما هو فيه قناعة البهم فلا يريد ان يشارك هذا الجراد المنتشر . وشاب من خلقه منا جل المال التي أقامها سوء التسامح في البلاد من مضاربتها ورقصها وقمارها وغنائمها ونساءها وخمرها وخمارها والقوم يأكلون البلاد ويتقلون بالعباد ولا حساب ولا عقاب . وكأني بك غير قانع بهذه الامور تريد ان أريك بعض الذي ذكرت عيانا .

فماذا يقول المحابي في تسليم البلاد الطويلة العريضة التي قدرت بقارة فرنسا والمانيا والنمسا مساحة . والهند ثروة بعد فتحها بمال البلد وأهله . أو بيع ما كانت للبلاد من البواخر التي تمخر في البحر تمزيقاً للعلم الذي عليها لفك رابطة الاتحاد وعلاقة التبعية . أو تسليم الملايين من الافدنة بما يتبعها من الآلات والوابورات والمواشي والمهات وقد كانت مورداً لارتزاق الالوف من المستخدمين والمزارعين والموظفين والمتجرين والبائعين . أو ايهاب الاسواق لشركة متكررة تضرب عليها الضرائب المختلفة بما يريد أصحابها . أو التصريح بإنشاء بنك جديد احال ثروة الوطن الى أوراق ستبتلع خزينة البلد ومال أهله وأوقافه حتى لا تبقى فضة ولا ذهب أو عمل خزائن

للمياه يجرف بأموال الخزينة ثلاثين عاما وسيجعل أرواح عشرة ملايين من النفوس في يد أمر : القضاء قضاؤه والامر أمره . وستحج اليه الناس كما حجت لزمرم تبتغى قطرة من ماءه . أو يبعها كل شيء لهؤلاء الاقوام حتى ملح الطعام . وهذه الامة الخائبة الرجاء في حكماها الضائعة الآمال في أبنائها لا تدري ماذا تفعل ولا تعلم ما تقول .

ضرب اليأس والقنوط أطنابه . وأجم القوم بلجام الخيال فلا تجدنا صحا يتقدم بالنصح في شيء من هذه المعايير ولا يستوحش منها كأنما مناقشة الاجنبي حسابه ضروب من ضروب القتال . انظر الى قصور الاغنياء والامراء . فأخذت استشرفها وهو يرشدني عنها بيتاً بيتاً . يقول هذا بيت فلان وذا بيت فلان فوجدت شيئاً يمد على الاصابع وهذا القليل ممن كان من أصحاب الامر والنهي في سابق العهد بعضهم سسم حال الحكومة والبعض فصلته ثم حسنوا لهم التخالص معها فباعوا ما كانوا يستحقونه من معاشهم حتى لا يوجد لهم اسم في دفاترها الامع الممولين ولا تكاتيبهم الحكومة الا في طلباتها فاصبحوا هم والزراع امامها سواء . وانقطع املهم وأمل الناس من عودتهم الى الخدمة وخلصت وظائف الامر لمن هذبتهم الحكومة الحالية باخلاق احتلالها وربتهم ورقتهم . ودرجتهم وحكمت بهم ومعهم فيما تريد . وقد بقيت فيهم عوائد البلاد فتراهم يتزاورون في أخريات نهارهم وبعض ليايهم ولكنهم قصروا الكلام في هذا الاجتماع على شؤونهم من فلاح وزرع لا يتعرضون لشيء من هذا الواقع أبدا سامة فيه أو ضجراً منه كأنما البلد ليست موطناً لهم واذا فرط القول من أحدهم وألم بحكاية اتفق وقوعها من مثل هذه العجائب مالوا به في الحديث الى حيث يريدون من الكلام على

خاصة أنفسهم وقد رضوا بهذا الفراغ والابتعاد عن العمل مسرورين لقضاء
باقي حياتهم وهم متمتعون بها يجدون كل يوم من أساليب الملاهي ما يشتهون
ومن الأشغال الخصوصية مالهه يحنون اما بالانتقال والنظر الى ثمرات مزارعهم
واما بما في منازلهم من دواعي الانس والبشر والاجنبي رضى منهم بهذا الخمول
وعبت في البلاد كما أراد ولا عبث الجراد

وحكام البلاد أوصدوا دورهم واتخذوا النوادي الاوروبية المعروفة
بالكلوب مجتمعا لهم ولم يبق في المنازل الا قليل من الخدم لرعاية الحرم فتى
توارت الشمس بالحجاب لبسوا مع الافق سواد الالهاب وطاروا كالطيور
الى تلك الاوكار. وقد قصره على أنفسهم فلا يدخله من كان اجنياً عنهم الا
اذا استصبحه أحد منهم ظانين انهم بعيدون عن أعين النقاد من العباد على انهم
أصبحوا في وسط هؤلاء الاجانب في دائرة انتقاد غير محسوسة لهم يحفظ
نقادها الحسنات والسيئات ولا يتغافلون عن أقل الحركات وهم من بساطة
أنفسهم قد كاشفهم بكل شئ من شؤونهم وأمرهم دائر فيها بين المقامرة
والمعاقرة والمراوحة والمتاجرة وقليل بالمسامرة والمحاضرة فهم في كلياتهم
لا يخرجون عن مساواة أى متمول فيهم ويزعمون ان ما هم فيه هو السعادة
التي لا تماثلها سعادة : قيام بحق الوظائف وابتعاد عن الخلق وخلص من الناس
فقال لى صاحبي أولئك السلف . وهؤلاء الخلف . فعلى من تتكل في
انتقاد البلد قبل التلف ؟ وهاك أيضاً أهل القطر عامة . فأجلت بصرى في البلاد
فوجدت أصحاب المظاهر منهم من شغلهم شؤونهم وبلاياهم عن كل شئ فما
منهم الا من ارتبط مع جماعة من أرباب الاموال اما في ايجار أرض للزراعة
واما للاستعانة على اتمام شراء شئ يجاوره ويحاده . واما لدين عليه دعاه

مظهره لا ارتكابه حتى ان كل شبر من أرض. له سطر في صك قرض. والمظاهر التي تراها من دور وقصور وخيل وبغال انما هي على حد قولهم (مستورة بالبركة). وعامتهم رضوا بالاكواخ التي هم فيها لا يبالون بحر الشمس وعصف الرياح. يصبح الرجل مع العجول ويبيت مع المهاري ويسرح مع البقر وقد شغلوا عن تحريك عقولهم بتسخير أبدانهم. فترى الفلاح على هذا الحال ولا تضيق له نفس ولا تتولا سامة فتحكم عليه بانه الهيكل الذي أفنى العادلين والظالمين من عهد القراعنة الى الآن وهو باق بنسخته لا يتغير

فلم اكد أعجب الاوصاحبي يلتفتي الى العلماء فاذا هم ينقسمون أيضاً الى أقسام: جماعات ادخلتهم الحكومة في خدمتها واتخذتهم سلماً لما تبتغيه فاصبحوا من زميرتها يعلمون الحق ويكتمونه وكلهم متطلعون الى الترقى والوصول للمناصب الكبرى

وقسم رضى بالانزواء فهو لا يدفع ضراً ولا يجلب خيراً. وقسم فسح لهم في العيش ولم يتخطاهم عهد الشباب فرحين بما نالوا من علامات الشرف ووسامات المجد. شغلهم التنقل في بيوت الحكام. والامراء العظام. وأهل الثروة دائرين فيها على هوى كل من لا قوه من أهل الحل والعقد ومرادهم من ذلك وظيفة ينالونها ليصبحوا مثل أولئك في نظر الحكومة

فقلت وماذا بقي من أوجه الأمل بعد هذا؟ قال ننصرف الى حيث المجتمع العمومي فنفضى اللبلة في منتديات المدينة لترى حال السواد الاعظم وخدمة المصالح وأرباب الاشغال فتتمثل لك شؤون المدينة في هذه المدينة وترى بعد الذي رأيت ووقفت عليه من أمر الحكومة وأمرائها وأغنيائها وعلمائها قوة هذا العامل الذي بطلت في جنبه العوامل

وتعلم الى أى درجة وصل صرف الاوجه عن النظر فى شؤون البلاد والى أى حد قبض على الاعنة والرقاب وهل من أمل للقطر أو رجاء وهل يمكن ان ينهض أحد لتجديد ما ندرس من آثار الوطن أو صوت ينادى باصلاح تخف اليه طلائع الاجابة من أى جهة؟ فقلت الامر لك فصرف وجهى حيث أراد وقال لى أنظر فنظرت فوجدت النوادي مزدهمة بالخلق وكلهم يتطلع لاجتلاء الاخبار وماتم على العالم فى يومه ليكون به من العالمين. وهؤلاء خواص الخدمة مما هو اكبر من العامل وأقل من الحاكم الآمر. فلم تمض لحظة الا وطوائف باعة الجرائد الذين يزيدون عن الخمسين عدداً ينادون بها. فقلت هنا العمل ومحط الامل. وانشرح صدرى لانها تمثل فى ظاهر أمرها نهضة أدبية لنفوس الامة لاقبال الناس على القراءة والكتابة بهذا الحد فلم نلبث حتى صار فى يد كل جماعة واحدة منها يقرؤونها بشغف قل ان تجد له نظيرا. الا فى بلاد غرس فيها الاستعداد القطري وهمت نفوس أهلها بالظهور بهذا المظهر السعيد. فأشرت لصاحبي ان يختطف لنا شيئا منها وكان ذلك. فأخذت اتفقد تلك الجرائد واذا هى شاملة أبسط الاخبار من جهة الحكومة كاخبار الاجازات والترقيات والتنقلات وأهزأ الحكايات من جهة البلد كالولائم والمآتم واحتفالات الانكحة والعقود وما شا كل ذلك. ومسرفة كل الاسراف فى أحاديث مجلس لندرا وبرلين ومحاكم باريز وبطرسبورج. مسهبة فى تفاصيل اتحاد الصين مع اليابان معترضة على بعض شروط الصلح بين أمريكا والاسبان. وغير ذلك مما لا يفيده ولا يسعد ولا يشقى. والحالة الحاضرة بعيدة عنه بأسره. وجرائد أخر تسب فى هيئة الحكومة غير مشفقة على نفسها لانها تعدت الحد. واستوجبت الحد. لا تبالى بانسان،

ولا سلطان. حتى يخال القارئ أنها موعزة لمثل هذا القدح ابتغاء شيء تناله .
فقلت لصاحبي ما هذا ؟ أين نصيب العامى من الارشاد والتنبيه على الفوائد
والاشتغال بها ؟ أين الكلام فيما يزيد سعادة الوطن والتنقيب على ما تحسن به
أحواله ؟ أين الكلام على احياء الصنائع والتشبه باهل الفلاح في عقدا الجمعيات
المفيدة ؟ أين الكلام على تهذيب النفوس والاخلاق واصلاح الآداب
والعوائد التي ظهر فسادها والمدونقات المنتشرة وسوء التربية التي فشت
عاهاتها وازدادت آفاتها وتفاقت رذائلها والمنكرات التي وقعت في سبيل
تنوير الازهان فسدت طريق الكشف على البصائر والاضاليل والباطيل
التي نمت سلفاً عن خلف ؟ قال كل هذا مسكوت عنه لا تذكره تلك الجرائد
ولا تلم بشيء منه مع انها على ما ذكره علماء الوقت أثبت تأثيراً في النفوس
من غيرها لدوام تلاوتها وملازمة قراءتها ولأنها نعم المادة لتفقه الناس
وتبته عقول العامة فضلاً عن الخواص

الجرائد هي الاساس الاصلى للتربية الاهلية لان عليها مدار التقدم في
المصالح العمومية المفيدة والمناجح القديمة والجديدة . الجرائد هي المدارس
الكلية المفتوحة لآبناء السبيل كاشجار في الطريق مثمرة لا يحيط بها سور ولا
يدود عنها حارس يتناول من ثمرها الوارد والمتردد . الجرائد ميزان الامم
ومعيارها ولكن ضاع عمل وخاب أمل ففي غير هذه البلاد الكتاب الذين
تنتظر أقوالهم في صحائفهم . وتسمع رسائلهم في جرائدهم . وترجى نوادرهم .
وتحشى بوادرهم . وهنا الهديان الساقط والبلايا المضحكة . فقلت له وما هذه
الجرائد التي ملأت صفحاتها بالثالب الشخصية كأنما هي في يد محررها
(سيف في يد مجنون) يصول به من غير روية ولا ادراك فزادوا في الوقوع

في الاعراض والتناول على الاحساب والخروج بالشم والبذاء؟ الا يوجد في البلد كما يوقف هذا البلاء ويضرب بين الاعراض وبين هذه الحريه الفاسدة بسور؟ فقال ان هذا ليس بالشيء الجديد واخلف لك ان لو جمعت ما قيل في السنين الاخيره في هذه الهيئه وما يتبعها جاء في مجلدات ولزاد عما قيل في الزيد والشمر والحجاج. فقد وقف الناس على اخبار الدنيا من تاريخها ورواة اخبارها ورأوا مارأوا بأعينهم من أحوالها فلم يقفوا على أدب ولا تأديب من هذا القبيل أبدا. وقد طال المدي وما تأذي المشتوم ولا كل الشاتم والقائل لهذا يظن ان هذا يصلح من أخلاق أولئك المشتومين ولم يعلم انه بفرض تأثيره فيهم فهو على قدر ما يصلح من أولئك يفسد من أخلاق آخرين بل يصد القراء عن اقتباس ما في الجريده من الفوائد للاعراض والقصور الذي يتولى النفوس عند مطالعتها فنبور بذلك المصلحة العامة المقصوده منها. ثم أطلعني على جرائد أخرى تركت كل هذه المناحي واتخذت مسلكا آخر لا يعلم كيف هو. امتلات بشيء من الخلط والهذيان والتكلم بألفاظ لم يسبق لها ضرب في شيء من بلاد الله ولا سمع بأن مثل ذلك يطبع وينشر وتباع منه الالوف في كل يوم الا في هذه البلاد التي هي بلاد الغرائب والعجائب فسألته عن حال محرري هذه الصحف بين رجال العلم . فقال ان فيهم من ترتفع بهم مقادير الجرائد ولكن المتطفلين زاحوهم فاسقطوا المنزلة وأصبحوا عقبه في طريق تقدمها . فهي محتاجة لاصلاح حتى تكون بمنزلة المرابي لهذه الامه المضللة التي طفرت حتى تخطت المقصد . وفاتت موضع الاصلاح وتعدت محل الفائدة الا من عصم الله . وكيف لا يكون ذلك وفي زمرة المحررين أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني

ثم استلقت نظري نحو القوم فاذا بحرية في الالفاظ تكاد لا تحلم بها
أوربا ظاهرين فيها بمظاهر التقليد : فمن قائل في الأديان . ومن متكلم في مقام
مولانا السلطان . ومن ناقض رابطة أحكام . أو قاطع علاقة أبرمت . وكل هذا
ضلال أشربوه في قلوبهم من سر الاحتيال . ولجت عيني فيهم حب التقليد
حتى في معاورة الانفاس ولو في الخطأ واللحن بحيث لا تجد كلمة مستحدثة
الا وهي دائرة في خطابات جميعهم كأنما هي تركيب جديد

فأخذني العجب من حال أولئك الانام كما عجبت من حال أرباب
الاقلام وقلت لصاحبي : اذا كان رأي العلماء ان تربية الكبير أمر عسير جداً
لان مناشئ العمل من العقائد والصفات تكون راسخة فيه بالفعل فيصعب
اقتلاعها وانتزاعها وقد طرأ على كباركم من المعاشرة والتقليد كل هذه
البدع والاهواء ما لم يطرأ على سواكم من أهل الارض حتى حجرت الابناء
على الآباء بدعوى السفه والتبذير وهم أسفه منهم فاحال صغاركم الذين
يتربون في حجورهم الآن . وينغذون بدرهم طول الزمان . ويندفعون الى كل
فعل بطبيعتهم من غير تكاف إذ لا ملكة لديهم ولا اعتقاد ؟ فقال هناك البلاء
والويل وموعدنا بكرة الثلاث نؤم فيها حلبة المعارف وميدان العلوم لترى
الاساس الذي عليه تبنى والطريق الذي عليه تشاد . وانصرفنا حتى انقضى الليل
وأشرق الصبح وطلعت الشمس واذا به يناديني فليته ومشى فاشيته حتى جاء
الميعاد المخصوص وأشار الى بالنظر فنظرت

فوجدت مدارس متعددة منتظمة منها ماهو للمبتدئين ومنها ماهو للترشحين
وتلك اسمها المبتديان وهذه التجهيزية . وفوق هاتين مدارس أخرى منها
للحقوق وهي التي تدرس القانون الجاري الحكم به في البلاد ومدارس للطب

وأخري للمهندسين وقد قسمت فرقا فرقا ونظمت فصولا على ترتيب جميل
فانفع نظري هذا النظام الظاهري وكنت أحكم على كل التلامذة الذين فيها بسعادة
المدارين والوصول لغاية المطلين. فقال لي صاحبي مهلا حتى أشرح لك الحال فان
الذي رأيت ناقص كما وكيفا

فاما نقصه كما فلا شك عندك ان المدارس هي المرابي العام في كل أمة
والواسطة التي تؤدي بكمالها الى رفع البلاد لأوج السعادة والذي ظهر في
هذه السنة من عدد من تقدم لالتماس الشهادة الانتهاية أي البكالوريا ان
المرشحين للامتحان فيها ٢٨٩ تلميذاً قبل منهم ٦٨ فاذا وزع هذا العدد
على مجموع الامة المصرية لخلج الانسان من هذه النسبة ولم نشك في ان هذا
العمل مقصود منه سد باب العيش في أوجه المصريين لان التضيق الشديد
في هيئة التعليم يقتضى ذلك فقد كأدأولو الامر ان يضيقوها في وجوه أرباب
المصاريف فضلا عن القسم المجاني

وأما نقصها كيفا فلان جميع هؤلاء النظار والمدرسين والحوجات وغيرهم
من رجال الدولة المحتلة ووظائفهم فيها علمية في الظاهر دينية وسياسية في الباطن.
والدليل على ذلك ما نراه في معاملة هؤلاء الاطفال الذين لم يبلغوا العشر فقد
قرروا أن لا يقرأ أحدهم من القرآن الشريف الا جزأ واحداً فقط. ولاجل أن
يصرفوه أيضاً عن هذا الجزء عمدوا الى جداول الامتحان فحذفوا منها من القرآن
وأضافوها على علم العربية عالية عليه حتى لا يجتهد التلميذ في حفظه لانه لا يزيد
في عمره ولا يرفع من درجته. ثم عمدوا الى من فوقهم من التلامذة وسعدوا
عليهم باب اللغة العربية ليمتوها لمتعذر الحياة الوطنية فمنعوا قراءة التاريخ وبقية
العلوم الآلية. تأمل كيف أماتوا الهندسة والطب من هاتين المدرستين حتى

أشرفنا على الخراب ولم يبق في كليهما ما يكمل عشرين تلميذا. ومرادهم ملاحظة ذلك حتى ينقطع علم الهندسة فينفرد مهندسوهم بالري وغيره ويموت علم الطب أيضاً من البلاد. واغرب شيء ان الملجئ لفتحها لحد الآن وجود مدرسين في الطب والهندسة لم تخلق لهم الوظائف المطلوبة. فهم يقتانون في هذه الوظائف التدريسية حتى يتم لهم المراد ويتعينون في مناصبهم المنسوبة لهم وتقبل هذه المدارس. ولقد أحس تلامذة هاتين المدرستين بذلك وبسد باب العيش عليهم فطلبوا الدخول في مدرسة الحقوق (لأن المتخرج منها ان لم تستخدمه الحكومة يجد رزقا حسنا من أوجه المحاماة وغيرها) فحسنوا لهم البقاء بكل الوجوه حتى ربطوا لكل تلميذ جنبيين استبقاه في تلك المدارس

أرادوا ان يغلثوا باب التعليم أو يعكسوا نتيجته فيحيلونها من جانب السعادة الى جانب الشقاء فسدوا باب الارتفاق في أوجه التلامذة فترى الوفا من أولئك المتخرجين الذين قضوا السنين الطوال في مدارس القطر وأحرزوا الشهادات بختم الدروس ضاقت بهم معاطف الشوارع وأما كن اللهو معطلين عن الكسب مخلدين الى البطالة التي هي من شر المفاسد. وليس المراد الا ان هذا القطر لا يلبث الا زمنا يسيرا حتى يري رجال مستقبله الذين كان يعدهم للقيام باعباء مهماته وانما ثروته هم أنفسهم مصدر شقائه ووباله وخموله واضمحلاله

يسئنون من المرء تأديبه الديني والديني ثم اذا أخذ الشهادة وظن انه قبض على مفتاح السعادة أقفلوا في وجهه باب العيش حتى تنتهي البلاد الى احدى حالتين: إما تهافت الألوفا من المتعلمين الى دركات الذل والمسكنة وإما الاعراض عن طلب العلم كلية واطفاء مصابيحها من البلاد لتعود لتقديم حالها وتعشاها ظلمات بعضها فوق بعض

بما إذا يجب الانسان لو سأله سائل عن أسباب عقم العلم عندنا وصيرورته سبباً للشقاء والخراب وهو عند جميع الأمم سبب للسعادة والفلاح وموردة للقوة والبأس والشئ الواحد لا ينتج نفعاً في مكان وضراً في آخر أصبح التعليم عندنا قاصراً عن القدر الذي يمكن الانتفاع به . مقصوراً على شئ من اللغات ونزر من الرياضيات لا يتعدى مبادئ الجبر والهندسة . وأشياء من آلات العلوم وكل هذا لا ينشئ رجالاً

صار المراد من المدارس نسيان الدين والعادات فترى التلميذ وهو يجهل مالا يجهله عاقل يدعى ان من فكره (انه لا يمكن النجاح والترقى الا بهذا الدين لان اختلاف الاديان أضر بالشرق ضرراً بليغاً . وان السعادة الدنيوية لا تتوقف الا على التهذيب ومساهمة الاوروبيين فيما هو انفع واسهل) وقد جهلوا ان الاوروبيين يمهّدون بالمدارس الى القسس غالباً وبالجمعيات الدينية حتى يدخلها الوليد بلا دين فيخرج بدين ولذلك فكثير من الاهل والعشائر يتعمّدون اولادهم في الخارج ليحكموا ربط عقيدته . وقد خلت هذه المدارس من الصبغة الوطنية والجنسية لاستبدال اللغة العربية بالاجنبية في التعليم والاستغناء عن الآداب العربية بالآداب الافرنجية للاعتياض عن المعلمين الوطنيين بالمعلمين الاجانب . وهذه الاحوال غرست في قلوب المتعلمين اخلاق الأمم الاخرى لانهم يتعلمون تاريخ انكلترا ويجهلون تاريخ تركيا ويدرسون تاريخ أوروبا ولا يقرؤن تاريخ العرب . وأورثتهم احتقار أمتهم وجنسهم ودولتهم ولا بدع لانهم يجهلون قدرها . وأصبح التلميذ يعلم انكلترا وهو مصرى ويجهل مصر وهو فيها فانسد باب الخير الذي يرجى منه التعليم وانقطع الامل من الحياة الوطنية لوجود هذا العامل العامل على إماتها . وقد أبطلوا

كل ما من شأنه احياء الشعائر الدينية بتهديب الاخلاق واصلاح الاعمال
وتقوية الروابط الجنسية والوطنية بامانة اللغة العربية وعدم تلقى الفنون بها .
وهذه الاحوال على قرب زمن حدوثها قد اُثرت في الامة التأثير الفاحش
الذي رأته وسيكون تأثيرها في الذراري أكبر من ذلك وتستبدل آداب
الدين بحرية الفساد والفحش وتقام اللغة الانكليزية مثلامقام لغة البلاد ويتمزق
شعار الوطنية شذر مذر ويصبح زمام الاخلاق بيد الاجنبي فيهيئتنا الى
ما يريد . لم يبق على التلامذة الا التجنس بجنسية المعلمين والمربين . فقد
مات الجنس وضاع الاصل الذي يراد احياءهما واعزازهما بالتربية وقد
ابتلاههم الله بمر ب (محب لذاته) وهو الداء الذي لا برء منه لان صاحبه شره في
الافعال لا يعرف العفة فيها . جاف لا يدرى سبيل التزلف فتراه مضطربا
لا يدرك جهة الاطمئنان . يفعل ضد الخير لانه هو والحر على طرفي نقيض . يتجيب
وهو عدو . ويخاصم وهو محب . ويتفق وهو مختلف . ويختلف وهو متفق . ويحجم
وهو مقدم . ويقدم وهو محجم . ويقول حالفوا ولا يفعل ويفعل متجاهراً
أى ضلال بعد هذا . انك تسأل التلميذ عما قرأه وحفظه في أي علم كان
باللغة العربية فلا يكاد يجد جواباً لاختلاف أسماء البلاد والرجال والوقائع
والفتوح عن الاسماء التي قرأ بلغتها ذلك التاريخ . ثم تسأله بالانكليزية مثلاً فيلوك
لك تلك الاسماء باداة يخرجها عن مسمياتها إما بزيادة حروف أو ببند حركات
أو نقص أداة . فكأنما وجد ليظني نور هذا العلم ويحفظ مالا يتعقله كالبيغاء
سواء بسواء . كيف يقرئ المعلم الاجنبي تلميذه : «ان المسلمين اندفعوا كالسيل
يتسابقون الى الكمال وادراك المجد المؤثل ليتقبلوا على الممالك وتوسعوا في
مجال الفنون من العلوم والصنائع وأظهر الله دينهم على الدين كله حتى دخل في

أقل من قرن واحد أكثر من مائة ألف نفس من غير كبير حرب ولا كفاح
وافتحوا في نحو ثمانين سنة زيادة عما افتتحه الرومانيون في ٨٠٠ سنة وامتد ملكهم
من البحر الاطلنطيكي من المغرب الى تونكين الصينية في أطراف المشرق
وان هذا السلطان دام لهم بالتضافر والاتفاق والاتحاد ومراعاة الروابط
الدينية « وهو يريد أن يخسف به وبدينه الارض

كيف لا يحسن المعلم الاجنبي لتلميذه اختلاف الرغائب وتقلب القلوب
ومخالفته لاصول دينه وعدم مراعاة جنسية ولا وطنية وهو يعلم علم اليقين
انه ان شب على غير ذلك من التفرق والاختلاف وتشتت الاهواء الذي يريد له
الاجنبي كان هو أول من يمتاخه من هذا القطر ولا يرضى له بمجاورته له فيه
فضلا عن تحكمه عليه .

قد اصبحت الامة افرادا متبدين متفرقين متنافرين متخاذلين لجامعة تجمعهم
أبدا ولا رابطة تضمهم . لا يحن قريب لقريب ولا يرعى حبيب ود حبيب بل انتهى
الامر الى الخروج عن البشرية وصارت كفصيلة الاسماك يأكل بعضها بعضاً
ان التعليم الذي نحتاج اليه هو ما يرشدنا الى الحقائق التي منها العمل
للوطنيين والمحافظه على اللغة والتأديب بأداب الدين والتألف به كما تألفت
قلوب جاهلية العرب وصاروا اخوانا على سرر متقابلين والعمل للسعادة
القومية التي منها تكوين الامة . وكل هذا مفقود بالمره والعلوم التي تدرس
باسم الاصلاح كلها بعيدة عما فيه الصلاح والاصلاح

انظر الى هذه الطبقة التي لم تبلغ العشر اذا شئت على هذه الخصال
وبلغت مبلغ الرجال ونالت الحرية التامة وبعث بأحدهم الى بلدة اسلامية
لا تشك في انه أول من يقوض دعائم الدين فيها ويزيل معالمه منها . فان لم

تلتفت الآباء الى هذا البلاء المتساقط عليهم والا فبعد سنين يسيرة يقاتل هؤلاء الابناء آباءهم على دينهم ويسخرون منهم ومن عباداتهم
أي شيء أدعى الى التفرقة والبغضاء من أن يشب الطفل على غير مصلحة
بلده وأهله وقومه ويصبح الوطن بين نحل متباينة ومذاهب مختلفة تؤدي
الى مناهضة ومناصبه . أمور إذا مر بعضها بالخاطر مروراً يبدت لها الانامل
وجف اللسان وجمد الخاطر وتبدل الحس ولا يجد الأنسان لسائل فيها
جواباً

فقلت له لقد أصبح إذاً اصلاح المدارس في بلدكم أفضل من فتح
البلاد لان حفظ ما في اليد أولى من الزيادة عليه ثم ضياع الجميع . فإين
الامراء والاغنياء يتوازرون ويتكاتفون ويتفقون على تربية أولادهم الذين
سيقيمونهم وكلاء على ما خلفوا ومسيطرين على ما أورثوا؟ هل يسرهم أن
تذهب هذه الدور وتخرّب هذه القصور وقد أجهّدوا أنفسهم فيها طول
أعمارهم وأفنوا في جمعها نفيس أوقاتهم؟ فقال انهم في معزل عن هذا .
والاغرب ان في هذه البلدة أوقافاً تغل نحو ٣٠٠ ألف جنيه تقريباً جلها
موقوف على فعل الخير كالمكاتب والمدارس والتكايوا والخانقاه فهي إما راجعة
لترية صغير أو مواساة فقير أو انتشار علوم أو تشييد رسوم حتى أنك تكاد
لا تعمد فيما رأيت من الابنية العظيمة والعمارات الضخمة التي رأيتها في
ذلك الجانب القديم الأربعة مساجد جامعة وبعض زوايا للصلاة والباقي
مدارس مرصودة على التعليم والتعلم وقد كانوا جعلوا النظر لآعقابهم فتوارثوه
حتى انقرضوا وآل أمر ذلك للحاكم الأكبر الذي اقام مقامه ادارة سميت
باسم ديوان الاوقاف فباشرت ذلك وصارت تدخل في خزيتها كلما

اكتنزه أولئك المحسنون وأهل الخير مدة حياتهم وادخروه طول أعمارهم وحرموا منه أنفسهم في دنياهم لانفاقه على هذه المصالح مصالح الابناء والضعفاء والفقراء وتبدل شرطه بتشديد الابنية والعمائر المزخرفة والاتفاق منه على أقارب الاقارب وأصحاب الاصحاب وادخار ما يبقى الى أن يسقط عليه أجدل الاحتلال فيلتهمه ثم يقف من هم فيه من الخدمة وينادون بانويل والثبور ثم تهدم الآثار وتندرس العوائد ولا تقوم بترميمها الا جمعية من الاجانب ترشدنا الى هذا الواجب. ولو أن أحدهم يود انقاذنا نحن فيه لأشار على الاوقاف بفتح المدارس كما أشار عليها بحفظ الآثار وخرجنا من أسر المدارس . ولكن كيف ترجو الخير من غير أهله ؟ . . فأسفت على هذا المال المبدد في غير وجهة المرصود عليه الذي هو أصل عظيم وغرض شريف

وبينا أنا أتفكر في هذا الحال قال لي صاحبي اقد صرنا عصر النهار فهل لك ان تنتقل معي بنظرك حتى أريك بعض عواقب الاسراف والتبذير لتقدر المال الذي ذهب فيه مع انه لو صرف في مثل هذه الوجوه لأغنى وأقنى وجدد وأحيا؟ قلت الامر لك. فأشار الى بأن أنفت ففعلت وإذا بقصر مشيد تثبت فيه الاحداق يخال الساكن فيه انه نازل في منازل الرغد والهناء كأن أرباب الحرف تسابقت في تحلية أبوابه وأصحاب الصنائع تقننت في تزيين حجره وحظائره حتى تجافى عن مواضع التوسط وقد فرشت أرضه ببساط العزف والصاعد اليه يتدرج في معارج الجلال . جمع نجوم الهناء والنعماء ورجوم البأساء والشقاء فقاخر بطالع سعده طوالع البروج في السماء . وكثيرا ما أزرى بهذا النيل عطاء ربه الجزيل ونادى فيه منادى السماح الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل حفت

به روضة فسيحة غناء جعل في أرضها أنواع المرمر الذي يزري بصدور الغادات
ونثر فيها من الحصباء ما يروع العذارى الخاليات قد ليست جميع جهاته
حلة اسعاد وفاخر قصر سنداد فاذا كرنى ماقله أبو طالب المأموني من أولاد
أمير المؤمنين المأمون العباسي في وصف قصر أبي نصر

فهنيئاً منها بدار حسوت مذ
ذات صدر كرحب صدرك قد زا
يغرس الصيد في ذراها من التقية
بفساء نطيل فيه تخفى الله
بهوها يملأ العيون بهاء
شيدها فضة وقرمدها تب
وثراها من عنبر شيب بالسه
مقنعات فيها الاساطين من فو
كل ناد فيها قد اشح القر
وأري بين كل نجمين كالرو
وسقى ماؤه حدائق غدا
صبغة من دم القلوب فن أب
ما بكاء الرياض بالطل الا
شابه النقش فرشها مثل ماشا
وكان الابواب صحب تلاقي
وكان الستور قد نشر الطاوو
وكان الجلمات فيها شمس

كجبالا من الخلوم رجاحا
د على ظن أمليك انفساحا
بل غرسا فتجتنه نجاحا
ظ ونلقى للفكر فيه انسراحا
صحها يملأ الصدور انشراحا
ر قد امتيح من نداء امتياحا
ك فان هبت الصبا فيه فاحا
ق صخور قد انبطحن انبطاحا
ش شوب الربيع فيه اشاحا
ض خليجاً من البساط مساحا
سبا الى ان غدت به ضحضاحا
صره اهتر صبوة وارتياحا
خجلا من رياضها واقتضاحا
به ولدانها دماها الصباحا
ن انغلاقاً ثم افترقنا انفتاحا
س منها في كل باب جناحا
أطلعها ذري القباب صباحا

والسوارى مثل السواعد كبت تحتها من أساسها اقداحا
وبيوت كأنهن قلاع مزروعات للنيرات نطاحا
ورواق كأنما بسطت فب دعاء أيدي الاساطين راحا
وجنان لو كنت في جنة النر دوس لم أبغ غيرهن اقتراحا

وبعد ان تليت منه تقانى لآخر يشبهه ثم الى آخر يمثله حتى امتلأت
نفسا ونفسا ووصلنا لحد قولهم « الليل أهسى » فأنصرفنا الى حيث نقيم وأخذنا
باطراف الحديث فسألته عن تلك القصور اذ راعى منها حال يشير الى انها
الآن مستعملة في غير ما وضعت له لان في بعضها جثت أموات وفي بعضها
حشرات وفي بعضها صنوف من الضيوف. فقال ان أمر هذه القصور لمن
أعجب الامور . هذه كلها كانت للملك ججاج يحكم هذه البلاد شيدها تقليداً
للقصور التي شاهدها في أوروبا الموك تلك البلاد بحيث لم تدعه اليها حاجة غير
ما حدثه به خاطره من اللحاق بهم في انتظام الهيئة وحسن البزة بالقصور
المشيئة والثياب الملونة والاطعمة المنوعة حتى يقال بانكم انعمتم في الترف
وحظيتم بالثروة ونهجتهم الصراط المستقيم وباطن الأمر غير ذلك . قلت والى
من صار هذا وغيره الآن ؟ قال الى الحكومة فلما استولت عليها عندما ناقشه
مندوبو أوروبا الحساب وأثبتوا ان ما صرف عليها انما هو من مال الحكومة
بطرق غريبة واحتيالات بعيدة لاتصل اليها الافكار لانها كلها اختراع
وابتكار. فمنها انه لسرعة استجابه الاحجار التي تشاد بها أرضه بعض هذه
القصور من قرية كذا تؤمر العساكر من جانب الحكومة بالقطع من المحاجر
وتنقل الاحجار على السفن الاميرية ثم تقطع قطوع بايعازه في النيل على البلاد
المجاورة لها حتى تغرقها فيهم رجال الحكومة بالأمر وتسير المراكب من

كل جانب ثم يتم المقصود باخذ ما هو لازم لهذا الامر الموضوع لالتسلك
القطوع . فانظر لهذا العمل الذى جاء على حد قول الشاعر
ويا له من عمل صالح يرفعه الله الى أسفل

وقل لى كيف لا تتخرب هذه القصور أو تبور وقد بنيت بخراب البلاد
وموتت بدماء العباد ؟ قلت وكيف وقف المراقبون على هذا السر . قال من
الخدمة الذين خالف فيهم قول الله سبحانه وتعالى « ولا تأمنوا الا لمن تبع
دينكم » فاستخدم البعيد والقريب من كل الشعوب وأطلعهم على سره فلما
سمعوا بقدم الاجانب مراقبين على الاعمال أخذوا يتقدمون اليهم بالخدم
النافعة والدلالة على مواطن الشبه والنعائم التي وقفوا عليها من العمل الذى
بايديهم لينالوا منهم حسن النظر فى المستقبل لعلمهم ان البلاد لهم . فكان
الاجنبى يحضر للديوان مشيرا الى المبلغ المشتبه فيه رامزا اليه بدفتره وصحيفته
وممرته ولذلك امكن جماعة من الاجانب لا يدركون سر العربية ولا يدرون
حساباتها تصفية ٢٠٠ مليون ليره فى أقل من شهرين بحيث لم يتركوا درهما
واحدا من غير اظهار جهته ووجهته ومحل وروده ومصدره

ثم ضاقت يد الحكومة عن الاتفاق على تلك القصور فباعت أحدها
بأقل من سدس تكاليفه لشركة جعلته نزلا للاجانب الغريباء وجعلت أحدها
مجمعا للمعاديات واصناف الوحوش وهكذا عاقبة السفة وغاية التبذير

مع ان الاوروبيين الذين جعلناهم قبلتنا فى التقليد وان انفقوا الاموال
الكثيرة فى تشييد مثل هذه القصور وتزيين الملابس وتحسين الاثاث الى غير
ذلك من اوجه المصاريف فانما ذلك جار عندهم على نسبة مخصوصة من فضل
ايراداتهم الخازين لها بالكمد والتعب فى ابراز المصنوعات الجميلة والمخترعات

الجملة التي تنتج الثروة الواسعة . ومن عاداتهم انهم لا يجيزون الاتفاق من رأس المال الا اذا مست ضرورة لا محيص عنها . ونفقاتهم على كل الاحوال لا تتجاوز حد اللزوم ولا تخرج عن دائرة الاحتياج . وكلها مؤسسة على جلب المنفعة والمصلحة . تدخل منزل الرجل منهم من أى طبقة شئت ترى غرفه ومخادعه مشغولات بأمتعة بلده وبضائع قطره وليس فيه قدر شبر عمر لغير حاجة حتى حديثه . وهو لا يشتري ثوباً له أو لزوجه وأولاده الا بقدر الموز . وحلى آل بيته ثلاثة أرباعه من المعادن . وليس فى اعطبله مزيد عن حاجاته . ولكنكم ركبتم الشطط وحلمتم الانفس مالا تطيق من النفقات الباهظة . يصرف الواحد منكم آلافاً من النقود ليعمر أرضاً فسيحة ربما كفاه عشر مساحتها . ويفرش بيته بأنواع النرش وتبقى غرف المنزل بلا ساكن يعلو التراب على ما فيها من الاثاث حتى يبله . يتختم الرجل بما قيمته الالوف . ويكون لدى زوجته من الجواهر ما يكفي للايجار والاتجار والاستغلال مستغنى عنه معطل بلا عمل . الى غير ذلك من المصاريف . وأغرب من ذلك انه مدين يتحمل ثقل الدين وثقل فوائده ولا يبيع من هذا شيئاً يتخلص به من ورطة الطالب خوفاً على مظهره الذي هو فيه . ثم هم بأجمعهم يفضلونكم بأجمعكم فى طرق جلب المال والمنافع وتخفيف اتعاب المعيشة وتحسين وسائل الاكتساب . فتراهم لان على الطريقة القديمة التي نشأوا عليها من عهد مئات من السنين لا يفارقهم الجهد والاجتهاد كأنهم فى تلك المنازل المصنوعة من اللبن المفروشة بقصب الحلفاء المعروشة بقضبان الشجر . مع ان هذه التجارات الواسعة والاموال التي لا تشفى تقتضى التراخي والفتور . وأنتم قد تحملتم الانين تحت اثقال الديون التي استغرقت جميع ما فى حوزتكم من الاملاك ولجرد الالقاب الباطلة لا يفارقكم الشمم أبداً وقد

استلبوا منكم كل شيء حتى صار من المظنون انه لو استمر الحال على هذه الجهالة
والسنة لأخلاق أيدكم من الزراعة أيضا لوجود من يحسنها منهم سواكم
كل هذه الجهات التي خربتها افكار الجهالة وثلمتها يد البني ورثها الاجنبي
وهو يستخرج منها الكنوز بحكمة ويفجر منها الانهار والينابيع بتدبيره
وقدرته فيجنى ونحن الغارسون . واذا سمعنا صوت منتقد لفعالنا هذه تغالط
الحس وتقوم بانكار البدهة وثبت له ان هذا الاجنبي لاسطوة له ولا قوة
وهو غريب دعتة الحاجة لطلب الرزق ونحدث خواطرننا باننا ارفع منه شأننا
واقوى منه يدا وان مساواتنا له في الحركات والسكنات تشهد اننا وهو على
سواء في نهج الصراط المستقيم . ونظل ونبيت على هذه الاوهام ويصبح
ويعسى على هذه الحقائق التي يريد الوصول اليها فلا يتم شوط المسابقة الا
ونحن في هذا الميدان نخندولون . ترى الاجنبي كذوبا صرايا شرسا أحق خاننا
ما كرا فاحشا متفحشا سبابا لعانا منغمسا في كل رذيلة كأنما هو مستخرج من
حمأة الرذائل ولكنه في نفع نفسه وبلده وأهله وملته ووطنه صورة من صور
الكمال ونسخة من مكارم الاخلاق قد توصل مع هذه المبادئ المتناقضة ان
يقنع أهل البلاد التي دخلها ان الاصلاح لا يتأتى الا على أيديه وأيدي اخوانه
وان قطرا لم يمتلوه محروم من المدنية ورفاهية العيش . ثم لا يزال بهذه الافكار
معهم حتى يذلهم ويروضهم ويستعملهم السوائم من الانعام ويقنعهم
بان السعادة لا تنال الا على أيديه بهذه الطرق . فاذا دعنا دامة الاخلاق ولين
الجانب الى اتباعه لا نلبث ان نكشف عن أسوأ الاحوال ونراه سيدا علينا
بعد ما كان خادما لنا

فقلت له بئس ما وصلت اليه هذه الأمم : تجريد وتقييد . والله لقد انقلت

كاهلي بهذه البلايا حتى اصبح لكل بلية وخرقة في قلبي وأظن ان هذا المصاب لا يمانه مصاب أبداً وهو ان يصبح الوطني عوناً للاجنبي وعتاداً على امتلاك بلاده يمهد له الصعاب ويزيل من امامه العوائق والعقبات ويسهل احتمال سلطته على النفوس

أفلا يوجد في هذه البلاد علماء للوعظ أو حكماء للنصح فينبون عن ارتكاب هذه المنكرات أو ان الكلام أصبح لا ينفع ولا يفيد . فقال نعم ان عندكم مدرسة كلية دينية ولكن الكلام كما قلت أصبح لا ينفع ولا يفيد . وسبب ذلك ان هذه المظاهر استعملت لغير ما وضعت له . فأصبح العالم الذي كان يهتدي به في ترك البدعة والعمل بالسنة يستأنس باستظهاراته واستدلالاته في انتشار البدع حتى استفحل الامر وأصبح ما كان يستعمل للضرورة مباحاً غير محظور . ثم فشا الامر فصار عادة مقبولة وهكذا حتى دخل في الدين ما ليس فيه أو أغفلت أحكامه وقل المذكر بها فأصبحنا كلنا ساجدين في بحار الخطأ « ضعف الطالب والمطوب » . ومع هذا فاذا شئت أن تؤم هذه الجهة تبركاً بها واستطلاعاً فيها فوعدنا بكرة اليوم بعد القيام من النوم . فقلت أجل ثم افترقنا للمنام وما زلنا حتى تبليج الصبح ووضح فالتفتت واذا به يناديني وهو على تمام الاهبة والاستعداد فأجبتة ثم لفت وجهي جهة المقصد وقال انظر فنظرت واذا بجامع كبير رحب فسيح احتوى على مساكن طيبة ومنافع كثيرة وجمع عظيم من الطلبة الذين يقصدونه من بلاد القطر أو الامصار المشرقية فاذا كرنى هذا المشهد الجليل حال مدارس العرب التي كانت تنسل اليها العلماء والطلبة من كل حدب كمدارس البصرة وبخارى وقرطبة ومراكش وفاس ومدرسة بغداد التي كانت تجمع ستة آلاف رجل بين معلم ومتعلم

مر على ذهني ذلك العصر السعيد النضر الذي كانت فيه علماء العرب منبثق
أنوار العلم ومدارسهم متخرج العلماء والفضلاء والنلاسفة والكتاب . وتمثلت
لى مدرسة قرطبة التي أمها البابا سيلبستروس الثاني الذي أدخل الى أوروبا
معارف العرب والارقام الهندية وأثار الحمية فى أهل ايطاليا وفرنسا وجرمانيا
وانكابترا فقصدوا الاندلس وتعلموا الرياضيات والهيئة والطبيعات والكيمياء
والطب وما يتبعه والفلسفة والجغرافية والزراعة . ومن الصناعات علم عمل
الورق والسكر والبارود والخزف ومعرفة تسمية وتربية دود القز وغير ذلك .
فقلت فى نفسى هنا الكنز المدفون

وأخذت أسرح طرفى فى مناظره فوجدت بعد الامعان الدقيق ان
سلسلة الشعور بينه وبين الامة مقطوعة غير متصلة الحاقات . فان جهابذة هذا
المكان غير مدركين شقاء الامة وتعسها . ولذلك لا يشتغلون بما فيه رقيها وسعادتها .
والامة جاهلة بأن هذا المكان قبلة مجدها وفخرها وان ارتقاء المدنية فيها
انما يكون بارتقاء العلم . بل نشأ فيها سامة وضجر منه حتى أصبح فيها من
يعتقد ان ضدمة التأخر التي صدمتهم لم يكن مصدرها الا هذا المكان
فاسفت وقلت

أتى الزمان بنوه فى شيبته فسرهم وأتينا على الهرم
نعم أتينا الزمان وقد زال من الشرق ركن التربية والتعليم القائم عليهما
بناء السعادة والاملان الرافعان كل أمة الى قمة السعادة . أتينا وقد أهمل العلم
النافع الذي يمكن ان يستمد منه القائم على الامة تأديبها وارشادها الى جميع
لوازماتها ويحقق لها وجوه منافعها حتى تنتهج منهاج الفلاح
فقال لى صاحبي ما أسرع ما انكشف لك الامر ! فقلت لانيك لم تعرج

بي الى هذا المكان الا بعد ان قضيت معك أياما بين الامة وأدخلتني في غمارها وأريتني اسرافا وتبذيرا وسفهاً وتبديدا وحسداً وسوء خلق وتنافر وخروج عن حد الدين وارتكاب لكثير من الجرائم والفساد وسوء ادارة وقلة تدبير. ولم أجد هنا شيئاً من موانع ذلك أبداً بل وجدت الامر بالعكس. فان سكوت هؤلاء الاجلاء عن ذلك ادى الى رفع حجاب الحياء بالمرة. وكان من في هذا المكان بالنسبة الى هؤلاء المتمدنين جماعة من أهل العصر الاولى تطل على هؤلاء القوم من شباك والا فكيف يصح ما رأيت ماذا يفيد الترقى والتساق على سلام النجو والامة هاروية في مهواة الفناء؟ كأن المتصدرين للتدريس غير واقفين على مقدار ما أضاعته الامة من الجاه والمال وما ابتذلته من النفوس والارواح وما صارت اليه من الفساد فلا يزالون في جدال على خلاف بين المتون والحواشي والامة تلعب بها الاهواء كأنهم يجهلون ان الامر غير واقع بهم ولئن فرت منه الآباء غير لاحق بالابناء وجدت عدم مجاراة للامم في شئ أبداً من العلوم العامة الجديدة التي هي في الحقيقة مأمور بها بعد علوم الدين محثوث عليها بآيات التفكير والتذكر والنظر في آثار الامم وأخبارها وآثارها والاخذ بما أخذوا به من الالتفات الى لب اللب والجوهر الفرد من كل علم. فرغوا من تلك الاقيسة القديمة والاستنباطات المتأخرة وأخرجوا أمرهم من القوة الى الفعل واستخدموا كل شئ في العجائب والغرائب حتى استجلبوا النفع من أرجل الحيوان بما لا يقل عن يد الانسان وجمعوا بالطرق الحديدية أوصال الارض جمعاء وجعلوا بالتغراف لكل بقعة منطقاً وسمعا وبعد في القياس أن يكون مستقبل الزمان كماضيه أو ذاهب الدهر كآتيه اذ الزمان أبو العجب وقد أتى بما ليس على الخاطر وأخرج

فوق ماتكنه السرائر والضائر

دهشت دهشة الخائب أمله الفاسد عمله لاني أصبحت في حيرة ليس في قدرتي تجهيل العلماء ولا تهجين المدرسين الاجلاء. وخفت أن يصل بعض الكلام الى هؤلاء الاعلام فأعد مستهيناب هذه الطائفة الشريفة التي علافتها ونما مقدارها. فقلت لصاحبي ان هذا المكان مما لا يقدر أن يحكم عليه الانسان الا بلسان واحد منه يخبرنا عنه. واني أريد ان افتتح حديثاً مع أحدكم لا علم هل يري ما أرى وهل يحس بالذي دهم البلاد على فجأة فأهبطها من عظمتها؟ وهل يعلم بمصادر الفتن التي توزعت أهلها والاحن التي تقاسمتهم؟ وهل يري انه من الممكن رجوع الامة الى رشادها واتخاذ سبيل تسلكه لسعادتها فتصل الى ما ترجوه من الترقى والحضارة؟ فأعنى بحياتك على ذلك . فقال هذا مطلب عزيز لان الانقلاب الفجائي الذي حدث في هذه البلاد أحدث دوارا في الافكار والعقول فاصبحت ترى المتحرك ساكنا والساكن متحركا وأحاط بها الاضطراب من كل جهة فصارت في أعمالها على غير هدى . فالذي أفاق الآن من الامة وتكيفت له الحقائق قليل ومع ذلك فسألا فيك بواحد منهم كأني سليمان الزمان . وكان صاحب ذلك الجان . فلم يرتد الى طرفي حتى رأيت معنا شيخاً جليلاً . وعالماً نبيلاً . وخبيراً بجزا . وأستاذاً مثقناً . وفقهاً محدثاً . مدركا أقصى ما يدركه الانسان في غايات الكمال فسلم وسلمنا ثم لاحت عليه دهشة من وجوده معنا في مكان كهو وضع الزهرة على الفتن الغض لاهو في السماء ولا هو في الارض فسكنا جاشه وبدلنا استيحا شه ثم أخذنا بأطراف الحديث فقلت له خبرنا أيها الاستاذ أين كنتم معشر العلماء حينما دهمت أهل المدينة هذه البلايا تحت ستار المدينة الجديدة وذهبت بالبلاد والعباد أدراج

الرياح؟ ولم لم تحولوا بين هذا الانقلاب وبين هذه الأمة المسكينة الى ان أصبحت في خبر كان؟

قال كنا بهذه البلاد ونرى كلما يقع فيها على غير هدى ولكن لارأي لمن لا يطاع . قلت وكيف ذلك وأنتم لا مناء على الدين النصحاء للمسلمين الخفراء على الذم الهداة اللامم قد أوجب الله طاعتكم واتباع طريقكم؟

قال ان الذي جلب للبلاد هذه البلايا لم يجعل بها كما يتوهمه الناظر اليها بل رصد الاوقات . وانتظر الساعات . وزبائنه تجر بالأمة لميدان التشبيه بأرسال البشاشة واللاطف وتشير اليهم بالسابق في مضمار التقليد بوحى الايماء ومغامر الطرف حتى اتصلت الأمة الى باحة التكيف والتشيل . وأصبحت تتوهم في كل حركة ان الذي تتوصل اليه من آدابهم هو أصول الكمالات . وان الذي تفارقه من عاداتها معائب وسيئات . ولقد استهوانا الامر في مبادئه وغرنا ان رأينا حاكم البلاد يخنو عليها ويألفها ويمطف على أهلها فنحننا ذلك من سيرها وتحري أمرها . لأنها كانت في مبدأ الأمر تتشبه بالقوم من حيث . ما كلهم ومشرهم وعواندهم البسيطة في خاصة أنفسهم . ثم ما زالت هذه الخلال الجزئية تتمكن حتى بدا في القوم افراط كانت نتيجه طروء امراض عنصرية على بنية الهيئة الاجتماعية . فلما رأينا ذلك باعيننا وأردنا ايقاف سيرها ووقفنا في طريقها كانت سكنت لذاتها في نفوس الامراء والحكام فاصبحوا ناقلين علينا مع أصحابها الاجانب . وقد اشتد الجدل والحصام مرات . كما وقع في مشروع الأمة وغيره . فتوصل الاجانب من هذا المدخل لاقتناع أولئك الامراء بان الدين وأهله عاقبة في سبيل التقدم والمدنية . ولا سبيل للوصول الى غاية السعادة الا بمفارقة الموانع التي فيه . واجتنبوا اليهم من بلادهم المهلمين والمعلمات . للبينين

والبنات . وبعثوا بأولادهم لبـالادهم وأخذوا بجميع تقاليدهم وادعوا ان ذلك تمدنا على انهم لو تأملوا الدين لثروا بالتمدن الذى يطلبونه وقد حرموه . واهتدوا الى ميزان العدل الذى يحاولونه وما أقاموه . فصارت الحكام تقصى منا من تراه جافيا . وتدنى من كان مصافيا . وبالمقصود وافيا . والعلماء انذء الرسل مالم يخالطوا السلطان أو يداخلو الدنيا . ونحن ذهبنا بين الرغبة والرغبة

ولو ان أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما ثم ماذا يفعل العلماء فى الأمت بعد هذا وأئمة الرعايا وحكامهم الذين هم بمنزلة الرأس للجسد . أو القلب للجوارح . اذا صالح صلحت . واذا فسدت فسدت . حملوها على نبذ ذلك كله وراء ظهرها . بل قرروا انهم لا يقبلون مستخدما ولا يقرون عاملا فى وظيفة الا اذا كان ممن تعلم اللغات وسافر الى البلاد الاجنبية وكان من حملة كتب التمدن الجديد لبلاده . فوسعوا الأمة سبيل الخروج من عاداتها وتقاليدها والنسوها أو امر دينها . وسرى التقليد حتى كان من أمره انه فتح لها باب اتباع الشهوات واضاعة الواجبات حتى ضاعت مصالح العباد العمومية . والمتأمل فى سير المتقدمين من علماء الملل يرى ان سعادة الأمم كانت ولا تزال مرتبطة باتفاق الحكام والعلماء ولا يوجد هذا الاتفاق بينهما الا اذا اتصف كل منهما بصفة العلم واتسم بها لانه لا يتحد عالم وجاهل

انظر لحال الصدر الاول وتتبع سير المتقدمين من علماء الملل وأخبار الماضين من الأئمة تجد ان الشرف والاحترام الذى كان يؤديه الحكام لاهل العلم على مرأى من الخاص والعام دعا الناس ورغبتهم فى تحصيل العلوم فجدوا السير فى سبيله حتى اتسعت دوائره . وعلت فى جميع البقاع منابره . واستنارت

به بصائر العباد . وصلاح به أمر المعاش والمعاد . وتناولت كتب العلماء فنونا شتى .
ففضلا عن المؤلفات التي لا تدخل تحت المحصر في الاحكام الشرعية تجرد مؤلفات
كثيرة في فن الملاحة والفلاحة والرياضة والصناعة والتجارة والعمارة والطب
والحكمة والفلسفة والتاريخ وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدى به
الجاهل . فكان العلماء بين الناس كالأهلة في السماء تنبعث أنوارها على سائر
ارجائها . وبسبب ذلك تألفت الطبائع وزادت قوة الامة وقويت شوكتها
وتمت سمادتها واتسعت دائرة ثروتها . وكفى بالخبر المأثور دليلا على ما أقول
(يزرع السلطان ما لا يزرع القرآن)

واني لأخفي عليك ان من سوء حظ المسلمين ان فساد الخلفاء والامراء
في دولتهم يتبعه في الغالب فساد العلماء الذين يرجى منهم في حالة الاعوجاج
والخلل والعلل تقويم المعوج . وبدلا عن ان يظهر وابتظهر النصيحة يساعدون
أولئك الامراء باسم الدين على كل أمر حتى انه لا يروج في سوق العلوم الا
ما يروج في سوق الخلافة والأماره . ولولا ان الحال كذلك لهمت طائفة
بتنفيذ نصائح النصحاء ولم الشعب المتفرق وقطع دابر التشيع الذي شق
عصا الجماعة ورمى المسلمين بالانقسام

ولقد رأيت بعينك كما سمعت بأذنك ما حدث عندما وسد الأمر لغير أهله وتولية
السفهاء أمور الكرماء من النفور والتباعد بين الناس حتى تعدى الاسافل على مقام
الخلافة وبدأ تفريق الكامة واحتقار الاحكام الشرعية وما انبنى على ذلك من
تقهر العلم وفقد أهله حتى نشأ من كل هذا تصور الدين على غير صورته فانهدم
أساسه المؤسس على العلم والعدل وهما اكبر دعائه ومالت الناس الى التمدن
الصورى الذى جمع البغي والظلم وقهر العباد وفرق اجتماع طوائف الأئمة المبني

على الرضى والاختيار وانقطعت الفوائد التي كانت تستمد منه وتعم جميع الافراد من جليل وحقير . وشتان بين زمان استنارت فيه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض أهل الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبق من الاحكام الا الرسوم . والكلام في هذا المعنى طويل وفتح بابہ الآن لا يفيد

فقلت له ان هذا لا يخايكم من مناقشة الحساب في موقف السؤال . لانكم ان تخلصتم بهذه الاعذار من عدم تقويم الاحكام . فماذا تقولون في الرضا بالبدع والباطيل والاهام والاضاليل التي زعمتها العامة انها من أصل الدين وهي من دسائس اعدائه . فان سكوتم عن اقرارها وكنتم لاتعلمون ان هذا مما يؤدي للحط من شأنه والتفريق لاجزائه والنقض لبنائه . واني لا اذهب بك بعيداً ولا ادعوك لابطال الزمر والقمر واراقة دنان الخمر من محال الأجانب . فان ذلك مما يشق عليك ولكن ارسل طرفك الى شكل الموالد التي يقيمها المسلمون باسم اولياء الله وهي من أشد ما تبلغ به النكايه فيهم حتى أصبح الدين بها مثله وأى مثله : نزل به أهله الى الخضيض وأحاطوه بالضعف والأزموه السكون والبسوه ثوب الخمول والضعفة وهو دين العمل والسعي والطلب والكسب والكد وتطهير النفوس من أردان الباطل . ان المسلم ليلتهب قلبه غيره وهو يري سير الدين على غير وجهه . وأعجب ما في الامر ان الذين يقيمون هذه البدع يدعون ان فيهم مزيداً عن المسلمين لانهم يفعلون ذلك من وراء ستار الورع والصلاح وهو التصنع والخداع بل النفاق والرياء

عمرُوا موضع التصنع فيهم . ومكان الاخلاص منهم خراب

فان لم يكن في قدرتكم ازالة هذه المنكرات باليد فباللسان: اذيعوا فسادها واشهروا امرها. ما هذا الكأس الذي شرب به المسلمون فتساووا به في الضعف والانكماش والتقاء د والتقاء والتقاء بالهوان والذهب بالدين. وأصبحوا وليس فيهم من يقول حقاً ليزهق باطلاً وذلك أقل مراتب العلماء

أى انسان يكون له من العقل أدنى زاجر وراذع ولا يمنع أخاه عن اقتراف المنكر ويذوده عن ركوب الأثم؟

أيليق ان تكون هذه الموالد موضع تلاقى العلماء والفقهاء وهى على هذا الحال من ارتكاب التجور ومعاقره الخمر و اغضاب الله سبحانه وتعالى وسيف الشرع فى غمده لا يشهر ولا يجاهد فى هؤلاء القوم حتى التصقت هذه المعاصى بجماعة المسلمين أى التصاق ونكت به الا جنبى وبكت؟ وكيف لا يفعل وحلقات الاذكار فى ازاء حلقات الحانات .. ومجالس الخمر والزمر فى جوار مجالس القرآن وحفلات الأذكار . وكل جماعة فى شطح وتواجد وتغن ونقر بالدفوف وعزف بالصنوج واصوات المزاهر . هل من اخلاص النصيحة للمسلمين ان يحضر جماعة العلماء هذه المحافل ويأكلون فى ولائمها ولا ينفون عنها؟ اليس من المقرر فى كتب الدين ان هذا كله ارتكاب لما نهى عنه الشرع الشريف؟ ومعلوم ان القائلين بهذا يستعملونه وسيلة لقضاء اغراض دنيوية

تعظ علماء الامم من دهرهم « ولسان الدهر بالوعظ لواعيه فصيح » : ادركو حقيقة احتياجهم لترقى الهيئة الاجتماعية وبقائها فى هيئة سليمة فاوضحوا لها أقرب السبل الى خير المناهج وأحسن المقاصد وطهروها من

بواعث الضعف حتى لم تبق فيها جرثومة من جراثيم الفساد فارتقت وترقت .
ولو ان بعض الزمان الذي يقنيه علماءنا يقضى في شئ تحيي به الامة وتسعد لرفعوها
الى أوج الكمالات في عهد قريب

فما الحياة بأنفاس نرددها ان الحياة حياة الفكر والعمل
يعجب المتأمل للدين الذي أخرج هذه الامة العربية من البداوة المحضنة
الى المدنية الكاملة وأخضع لها الممالك والبلاد والعباد في زمان قريب كيف
يكون مدعاة لاخطا هذه الامة في هذه الايام ...

فقال لي أراك طوقت معاشر العلماء بالذنب وأخطمهم بالخطيئة من كل
ناحية كأنك تجهل ارتباط الامة بالحاكم أيضاً، وان العلماء والحكام من مجموع
الامة بمنزلة العقل المدبر والروح المفكر من الانسان . فصالح حال العلماء
والحكام يصلح حال الامة وفساد حالهما يفسد حال الامة بأسرها . وسمعت
منك انك رأيت في الامة كذبا وزورا ورياء ونفاقا وحقدا وحسدا وأشباهها
من الرذائل فاشية ولم تتكلم مع أمراءها وحكامها بشئ أبداً وتشدد النكير
عليهم . على انك تعلم اننا عز لان لا نملك من الامر غير النصيحة ونعتقد ان
صالح الامة بالحكام اقرب من صلاح الحكام بالامة . لان في الاول القدرة
التي تحمل الامة على فعل ما تريد منها طوعا أو كرها وفي الثاني ما فيه من
الزمن الطويل حتى يتعدي أثره للحكومة فان كنت تريد الاصلاح لم
تستصرخ الحكومة أو الحكومة والامة معا فان لبي الدعوة كلتاها وقع
الاصلاح الذي تياس منه والافاسمع السامع ونبه الامة

فقلت له انما أريد ان أنادي بحكامكم بلسانكم وأسمعهم ارشادكم والا فكيف
يمكن لي وأنا غريب ان أبلغ بنصيحتي ما أريد وكل رئيس من رؤسائكم له

مصانع تنصب له تماثيل المدح والثناء وتشيء له اساطير الشكر والدعاء حتى انهم أصبحوا وعلى أعينهم غشاوة من ذلك لا يكادون يبصرون ما تحت أقدامهم فضلاً عن تقدير مرا كزهم

قال وما الذي تريده منا بعد الذي ذكرت؟ قلت أريد منكم أن تتعلموا الوقت الذي أنتم فيه لتعلموا ان حرية التعليم والتصنيف والتحرير والطبع والنشر والخطابة وتأليف الجمعيات بأنواعها الحاصلة الآن في بلدكم لا توجد ولن توجد في بلاد اسلامية. وهذه كلها من سلالم العزة والترقى في عموم الامم. وقد رأيتم من حكمة التدريج الذي عوملتم به ان ما أبيع في أول الامر أتى عليه في آخره. فهذه الوظائف كانت مباحة فاحتكرت والنقود كانت ميسرة فتعسرت والنقود كان سارياً فوقف والحاكم كان ظاهراً فاعتكف. فلم لا تظنون أيضاً انه سيأتي عليكم يوم تحاسبون فيه على خطرات القلوب وهو اجس النفوس وتجبرون على التعليم الذي يريدونه وتمنعون من الذي تريدون وتدمون حيث لا ينفع الندم؟ أليس من الأولى ان تصلحوا التعاليم الفاسدة وتنصحوا الأمة بالاجتهاد في تعميم المدارس على الوجه المرضي وتقوموا في هذه الفرصة بما هو أوجب عليكم وقد مكنتم من كل شيء وأبيع لكم كل عمل؟

فقال لي صاحبنا لا تعب فان طريقة التعليم المتبعة عندهم كما علمت فاسدة وقد وفد على هذا المكان علماء من الغرب والهند ومن بلاد فزان وغيرهم وانفقت كلماتهم مع اختلاف اقطارهم على ان التعليم الازهرى لا يرجى منه خير للمسلمين اذا بقي على حاله وليس له من فائدة غير حفظ بعض العلوم وآثار السلف حفظاً يحمده عليه والحياة المليية لا تفيض على الأمة من هذا الطريق أبداً. أنت تعلم ان طريقة الوعظ والتعليم منحصرة في الخطابة وقراءة علم

الإخلاق والآداب وسلوك طريق التربية الحقة. وما انتمت هذه الأركان في مكان إلا انتم شرف الإسلام . يشهد بهذا التاريخ هذه الأمة لمن تأمله واعتبر به . وهذه الأركان جميعها مشلومة في هذا الزمان

يا طالما قيل لهم ان الخطابة والكتابة من دعائم العمران التي قام عليها بناء الاجتماع الانساني وأثبت كتاب الأمم انه ما من جمعية أتلفت ولا مملكة تألفت ولا ديانة انتشرت ولا معاملة شرعية تقررت الا بهذه الآلة التي لها في النفوس تأثيرا الترغيب والترهيب والانداز والتبشير . والصناعة النفذية وطريقة الانشاء وسبك المعاني في قوالب الكلام بالتأثير يريد المثنى متعذرة عليهم مع التأتى والتأتى وفراغ البال والوقت . فكيف يتأتى لهم ما تقول من القدرة على الخطابة وذلك مقام شق على أهل الكلام وأرباب النظام

نعم ان الدين مؤيد بروح الله مبلغ على لسان رسول الله ولكن من أدوات تغيير طباع العرب ونقلهم من جفائهم وغلظهم الى التخلق بخصال الكرم والثبات والتحمس وصلة الأرحام والرجوع عن كثير مما كانوا فيه سببه القرآن . وذلك اصفاء الروح وكونهم أقرب انعطافا للبلاغة فقامت دولتهم ببلاغة الخطب والرسائل وفتحت الفتوح وقهرت الممالك وتم الخير كله مسوقا بخطبة من خطيب أو رسالة من مجيد . والامثال على ذلك كثيرة حسبك دخول الحجاج العراق أعزل ليس معه الا أرنبه لسانه وتغلبه عليه واخذ نار الثورة منه وكم قلب البيت من الشعر قلباً فأمات صاحبه وقد كان شجاعاً أو شجعته وقد خلق جباناً حتى رمى بنفسه في ميدان القتال يتوسط الرمح والسيف ويتناول كأس الختوف بيده . فاذا كانت استعصت عليهم أخلاق هؤلاء الناس فلم يلبسوها بمجيد القول ومؤثرات النصائح حتى يتأدبوا بأدبكم ويتعلقوا بأسبابكم فقيموا

ملتكم وقد أشرفت على الأضحلال وتناولوا فضل مزية كبرى يكون لكم
بها الفضل على الناس وتثبت غيرتكم بها على الدين واللغة وثنافسوا الاوربيين
الذين يدعون لانفسهم الكمال المطلق . ولسكوتكم أنتم مال بعض القوم
لتصديق هذه الدعوى التي قاربت أن تكون حقيقة في الاذهان لا تحول
الناس عنها أبداً

قال لى صاحبي ان فى الامر لسرا غريبا كنت اظن انه سينكشف لك
اذ قلت ان طريقة التعليم عندهم فاسدة فان المجاور بعد ان يقضى خمسة عشر
سنة فى التدريس يخرج وهو لا يحسن لغة الدين قولاً أو كتابةً لانه لا يقدر
أن يخطب الناس كما تريد ولا يكتب بالاسلوب العربى البليغ
قلت وهل يعقل ان أحداً يفهم القرآن والحديث اللذين هما ينبوع الدين
ولا ترسخ فى نفسه ملكة اللغة والقرآن معجزة الاسلام ولا يستطيع العلم
بأحكام الشريعة الا بفهم ألفاظ كتابها ولا بدنى ذلك من الآلات التى توصله
ويتمكن من الفهم والتفهيم والتلقى والتأليف والتصنيف والوضع
والتدوين

قال انهم لم يمارسوا علم الأدب بالطريقة التى اتفق عليها علماء الأدب
لانهم مقتصرون من علوم اللغة على بعض قوانينها كالنحو والصرف والبيان
والمعاني والبديع . فان حصلت لهم ملكة فلا تحصل الا فى تلك القوانين فقط
أما ما تريده من الملكة اللسانية فى نظم الكلام فذلك لا يحصل من هذه
الآلات وانما يحصل من ممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن
لخواص تركيبه وتطبيقها على القوانين العلمية التى استنبطها أهل هذه الصناعة
قلت أصحيح أيها الاستاذ ما يدعيه عليكم صاحبنا ؛ قال نعم ولكن تنهت

في هذا الوقت خواطر وتشككت لجنة من جماعة العلماء تبحث في هذه الحالة بطرق شتى وسيتم بها الخير ان شاء الله عند فراغها من بحثها عن قريب .
فقلت له انى رجل غريب وأريد ان لا انصرف من هذا المكان الا بشيء أقدره وأقف عليه . وقد رأيت فيك مخايل من الذكاء والفطنة . فانا اقترح عليك خطابة تلقيها الآن في ذلك المكان بعد ان نزلك اليه ونسمع ماتقول .
وقد فهمت الموضوع ووقفت على الاصول والفروع لعل الله يفتح بنا بابا مقفلا ويهيئ لكم خيرا كثيرا

فأجاب السؤال وودعنا وأنزله صاحبي وقد كانت صلاة العصر قائمة فأتيت بالامام حتى صلى ثم توسط الناس وقام بينهم خطيبا فقال
﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

« أيها السادة العلماء

الحمد لله جامع الناس ليوم لا ريب فيه . وسامع دعاء من يلجئ اليه ويرتجيه . القامع أعناق جاحدي احسانه والمنكرين . المعروف بالمعروف للعصاة والطائعين . الموصوف بصفات التنزيه والكمال . المتجلى على عباده المخلصين بعين الجلال . أحمدته حمدا لا أقدره ولا أحصيه . وأشكره شكر العاجز الذي لا يقدر أن يوفيه . وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الشفيع الوجيه . وأصحابه الذين ليس لهم في الشجاعة من مثيل ولا شبيه . اما بعد فيا عجبا من ابن آدم يطلب الزيادة وعنده ما يكفيه . ويتعرض لما لا يعنيه فيعيبه . ويعد نفسه من أصحاب العناية والافضال . وهو من أهل التسفل والوبال . فيأيتها المغرور . الذي فتنه الغرور . أيجيبك ما أنت فيه من الغنى عن الموت . أم يبعدك مامسك من الصحة عن الفتور . كلا ثم كلا . وانما حب الدنيا اصماك وأعمالك .

وجعلك لاتندكر حالك فى اصباحك وامسالك . فتدكر وارحمك الله فقدناح
بالبين ناعيه . ولاح من الموت للعين داعيه . واثبل الادبار وأدبر الاقبال
وستقدمون على ملك كريم . وسلطان عظيم . سميع عليم . فان كان أحدكم
سيئاً يخزيه . وان كان محسناً يجزيه . فتداركوا قبل ان يجرعكم الموت كأسه .
وتزهق من أحدكم نفسه . ولا يحسن اللفظ ولا يلقيه . وينقطع جبل العبد من
فيه . واذا به بين يدى الله تعالى ولم يمهل حتى يقلع لباس التديس . ولا
يتخلص من التمويه والتلبيس . ولا فرار اذ ذاك ولا محيد . من التنكيل والتأكيد .
وتنهش اجسام المجرمين والقبحا . باسنان الهوام . وتعرض السنة البلغاء والفصحاء .
ويمتد الغرام . ويقول الناس هذا يوم الوعيد . لاتكلم نفس الا باذنه فمنهم
شقى وسعيد»

فلم ينته من خطابه حتى تصيب عرقاً من الخجل وأرسلت طرفى أترقب
منتقداً على هذا الكلام من هؤلاء الانام فلم أجدهم شعوراً والكل مجمعون
على الاستحسان فأدركت ان هذا منتهى الفهم وذلك مبلغهم من العلم وأيقنت
صحة ما قيل وعرفت الامر من غير تعليل فقلت لصاحبى اين السبيل ؟ فقال
الى أين تريد ؟ فقلت هجرة الى دنيا ليتبدل المقام . فلفت وجهى فرأيت مجامع
شقى أخذت من كل حالة بطرف فتخللناها ونقدناها وأراد الله ان تجلى لنا هذه
المظاهر بمضمراتها فنمر على الحلبة فنعلم ان أحدهم من أهل البلاد وقد جاء الى
هنا وجمع حوله الشبان الذى هم زين عصرهم وأمراء مصرهم بعد ماباع من
زرعه لليهودي فلان كذا نسيئة ليندله فى هذا الحرام يتوصل به لشيء عند
بعض الحكام . لانه لاسبيل الا بالتقرب من واحد ممن استعملوهم وسائط
بينهم وبين أهالى البلاد لتقريب المراد وأدخلوهم تحت عنوان كاتم السر

وسخروهم لمثل هذا البر. ففطرنا واذا بالمقترحات منهم متوالية والطلبات متتابعة وكلها تأبأها نهمة البهائم العجاوات . فمن حلوا أثر حامض ومالح في عقب تافه ومشروبات خصت بالطعام تستعمل في غيرها وتزيد ضرر اعلى ضررها . والطالب يحلف بالطلاق ويسقى بالخناق ومثالبسه تقمع على الارض وتداس ويفك حزام القفطان وتتراخي تكة اللباس وتتسع طيات العمامة حتى يلعب زررها ويقع ورد الملح وعلم خبر المال من قبلها . والغرباء ينظرون ويفرحون ويشربون ويضطربون . فتركناهم ثم صرنا الى اخري جمعت الشاب والشابة ووسيط ما بينهما اما فتى اوفينية يوكل بتمام المأمورية . وقد استحكمت الشهوة وزادت الجفوة فانكشف لنا ان المسكين خرج من داره بعد رهن اشياء من مقتنياته بالفائدة الفاحشة ليقضى هذا الوطر . والباغية الملعونة لا ترضى منه بالقليل ولا تتيهه ما يريد من ذلك القبيل . فهو يتلظى على حجر الاشواق وهي تعده بقرب التلاق فالتفتنا عنهم والتمسنا غيرهم فاذا نحن باخرين فرغت من بينهم جعبة الكلام ولم تفرغ شهوة المدام فهم يطلبون ويشربون وليس لذلك من . بسب غير حبهم لمثل هذه المجامع وكرهتهم في البقاء مع اهليهم في منازلهم . غفلوا عن حق الاباء والاولاد وما ينبغي للنساء والامهات فلا أفضع عندهم من ملاقة اهليهم . فهم يمدون اوقات الغياب في الخارج ليدخلوا البيوت والقوم نيام . فعجبنا منهم ثم لمحنا غيرهم وقد مرت عليهم عادة فاذا احدهم ينشد للاول يا عنز هل لك في شيخ فتى ابداً وقد تكون شباب غير فتيان فيطربون ويقهقهون ثم ينظرون اخري فيقول غيره عند سرورها ما احسن قول حسان بن ثابت

لم تفتها شمس النهار بشيء غير ان الشباب ليس يدوم

فيعترض عليه معترض لانه وصفها بالكبر على انها ليست كذلك
ويقول آخر ان هذا على سبيل التأسف أى الاشياء لا فناء لها ويستشهد
بقول القائل

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لبقاء الانسان
ثم تدور الاقداح وبنماهم كذلك واذا بأمر أجنبي يدخل عليهم فيقفون
له ويجلونه فيعلم ما كانوا فيه من حديث الصباغة فيميل بالملازمة عليهم لتعلقهم
بهذا الباطل ويقبح لهم شعر العرب ولغتهم وعواندهم ويقول لهم ان معرفة
أقل عادات أولئك العادات تننى عن شعر حسان وثر بديع الزمان فيوافقونه
نفاقا ويسلمون له رياء . ويظهر ان هؤلاء بعض المدرسين فى المدارس للاولاد
والبنات وذلك الناظر عليهم أو بعض مدرسى احدى اللغات . ثم تجد فئة أخرى
هى بالملازمة أحرى فانها فتنت بالمقامرة فهى ترضن أو تحاسب على القوت فى
البيوت وتدفع فى هذا الحال كنوز المال بلا ملال . ثم نظارنا واذا مر اسح
الرقص فحش وأى فحش : ظهور بالعورات وخروج بهذا العمل عن جميع
الديانات والعادات حتى صار لاجزأ لهم أليق من السحق . ثم استشر فنا غيرها
ولا شغل لها الا الكلام كأنما هى مسخرة لتقد هؤلاء الانام فتشير الى أحدهم
وتسرد مافعله من بيع الدور وما صرفه فى الخمر وما قامر به فى الخانات وما
أكله من حقوق الاخوات والبنات . وتلتفت لغيره وتحصم مقدار خيله ورجله
واسرافه فى حوله وحيله فاذا بها أموال تستغرق الكنوز . على ان الامير
لاحيثية له تؤهله لمثل ذلك ولا داعى له غير تقليد الكبير فى كل يسير أو عسير
ثم تدور حكايات البيوع فى محاكم القضاء وما أخذ منها بالثمن البخنس وما ذهب
فى دين لا يذكر وقد كان عتادا لعائلة كبيرة وما دلس فيه المرابون حتى سلبوه

بغير حق . ثم ذكروا فلانا ومقدار ما وصل ليده من المال وما وصل بعده الى
سوء الحال فكان ولا مبالغة فيما قيل فوق المائة الف جنيه أحصاءاً بدءاً وأتلفها
تقدماً على انه لم يظهر من الحياة ثمرة ولا حول ولا قوة الا بالله . فبينما أنا أسمع
ما يقال واذا بنسوة تخطر امامنا في حلال الجمال وتستأسر القلوب بالدلال
فقطعت خطراتها هذا الكلام وألزمت أولئك الأنام ان ينظروا بإسلام . فسارت
معهم النظرات حتى ذهبوا الى حيث يشاؤون . وقد نقل هذا الحال تلك الطائفة
للكلام على فشو الزنا فابتدأ أحدهم قائلاً ليس لكم حق في ملامة السكارى بمد
هذا الحال فان ذنوب الناسى ممنوع عنها في جانب ما يفعله الفاسق كما ان هذا
لا يذكر بالنسبة لما يأتيه الكافر الجاحد . هل يليق بأمة مسلمة ان يكون
من قوانينها . ان يكون من ضمن رعييتها هذه العواهر ثم انها تضمن الكشف
عليها ليعلم هل هن صالحات للوطنى والنصرانى واليهودى أولاً . فيذهب الحكيم
المسلم لاخته المسامة ويقول لها ما يقول خدمة لساكنى هذه الديار . من
الاجانب ؟ فقال له الآخر وهل هذا أخش من ان تبنى البكر فيفتض
بكرتها زان فاسق لقضاء شهوة حيوانية . ثم اذا خاف العقاب دخل كلاهما من
باب النيابة واقرا امام القاضى بأن ذلك برضاها واختيارها . وبعد ان يشهداه
على الزنا يخرجان من باب المحكمة ولا اثم عليهما . أليس ان العاقل ينتظر في
هذه البلاد وقتا تكون فيه البكر التي لم تنزوج فقط بغير بحث عن حقيقة
البكارة ؟ أليس انه من أكبر دواعى فساد الانساب وزوال الاحساب ما نراه
من التهمك وعدم الوقار ؟ والله انى لنى عجب من ان هذه الاخطار والدمار تعدها
الامة من أسباب الملاذ ! وأى لذة لهذه الحالة ونحن لا تشرق علينا الشمس
الا ونسمع عن بيت أظلم من القفر سراجة . وضاع منه ابتهاجه . أونرى ثروة

بددت. أو مكانة شرف هددت. أو تزييرا أو تزييرا. وقع فيهما الكثير. وسباق
الاجنبي والوطني مستمر في حلبة المياسرة والراباة الفاحشة والمقامرة. ولن
يفترقا حتى تكون يد الاول مما اكتسب من خير يسرا ونصيب الآخر
مما فرط عسراً. بل من كل ما علق به صفراء وهذا ظاهر ظهور الشمس باد
للناس منه سوء العواقب من كل جانب. وكأن الذين لهم النهى والامر في
عالم السببات وليس الا أن تخرج النساء من البيت بالبسكيت وتجلس على
البار. لافرق بين الفاجر والبار. وكل آت قريب

وأغرب ما سمعته - وأشار الى حلبة المدارس - ان الدفاع عن النفس
والمتاع متعلق بجماعة الشبان : يقولون انهم سيخرجون من مكاتبهم الى مدارسهم
ثم ينتقلون الى الكليات ويدخلون من باب الطبيعات ويخرجون من باب
الاختراعات في الصناعات والابتداع في الآلات والادوات. ثم يتسامون في
البحث حتى تصبح عندهم الديانات متساوية والافكار متناهية ويستوى
الحرام والحلال. وينشد قول من قال

ان الديانات ألفت بيننا احنا وعلمتنا أفانين العداوات

ثم يهملهم العدو ويساعدهم وتعييرهم تلك الطباع ولا تتخذهم فيدفعون
الضار ويجلبون النافع ويحمون الحوزة ويصونون البيضة وتستقل البلاد
وتحرر العباد. فقال له أحدهم ضاحكا ان هذا أبعد من الطيران في جو المحال
باجنحة الخيال

أترجو ربيعاً أن سيأني صغارها بخير وقد أعى ربيعاً كبارها
فقلت لصاحبي أي دنيا هذه التي نقاتني إليها : قال بقعة المدينة الجديدة.
ونقطة الآداب الحديثه. ومركز سراة الامة. ومدار الاحاديث المهمة. قلت :

مارأيت فيها إلا غما وهما. والله لو علمت ذلك ما سألتك. فقال ان شئت الى غيرها نقلتك. فقالت : لا والله كفاني وهلم بنا الى حيث نقيم ثم ندبر ما نصير اليه بكرة. ونراه غدوة فقال أجل. ولم أشعر الا وأنا في مكاني. حيث أراه ويراني ولكني في غاية النكد والحزن مما رأيت حتى اني طلبت النوم فلم أجد اليه سبيلا. وكان هذه الساعة كانت فاتحة الاحزان ذاتي ثم أتغلب على نفسي وأنام قليلا الا استيقظت على صراخ وعويل امتلأت به البادة حتى ظننت لأول وهلة ان قد دهمها عدو أوهاجها محارب ثم دقت النظر فلم أجد شيئا من الدروع والصنائع الا الفضائح والقبائح. فقالت لصاحبي ما هذا الحال؟ فقال هذا يوم الخميس والعادة في هذه البادة ان الاحياء لا يزالون يندبون الاموات (حتى يعودوا اليهم) ولهم قواعد مخصوصة وهي ان الميت إذا مات اختفوا بمأتمه ثلاث ليل متواليات ثم بأربعه أسابيع يستريحون بعد ثلاث منهن خميس يسبحى يوم الخميس البهال والاسبوع الاخير اسمه خميس الاربعين . وتحتفل الرجال ليلى تلك الايام بما لا يفترق عن الافراح بنفقات طائلة كلها مقصود بها وجه الباطل من المنخنقة والعظمة . ومنهم من يقترض لهذا الرياء بالرباء أو بالصرف من مال القصر أو المعتوهين

فقالت لصاحبي أدنى من أى مكان من هذه لا شاهد هذا الحال عن قرب فتعلم وإذا بمنزل رحب يدل على مكانة صاحبه في العز والعظمة مملوء بهذا الصياح والولولة والعويل الزائد والنساء في الدخول اليه حبل متواصل . وخيط متراسل. الواحدة في أثر الاخرى من طبقات مختلفة لا يمكن للأنسان ان يتصور ابدأ بان كلهن أو بعضهن من أقارب هذا الميت أو من خاطاء أهل البيت أو خلصائه وكما دخلت البيت داخلة منهن يتعالى الصراخ كأنما الداخلة

تزيد في نشاطهن . ونظرت واذا أشنع العادات وأبشع المبتدعات وأسخط ما يغضب الرحمن ويرضى الشيطان من نساء معولات قد خمشن الوجوه ونشرن الشعور وشققن الجيوب وضررن الصدور والظمن الحدود والنوائح صفوف بالدفوف يهجن الاحزان ويثرن الاشجان وبذكرن كل واحدة من الزائرات بمصائبها وما جرّه عليها الزمن من الاحن والحن بالفاظ متقنة التلحين فتفت قلب الجماد فتذكر الاطفال اتدرف عين الفاقدمات لهن أو المقلات منهن . ثم تترقي الى الصبيان ممن لم يبلغ الحلم لهييج لوعة التي فتكت المنية بولدها وادوات ختانه موجودة ونوازم مهرجانه مستكلمة مثلاً . ثم تتعالى الى الذي فاجأته مصيبة فترك خطيبته لتشعل نارا وأي نار على استبدال الافراح بالاتراح . ثم تقول في الوالد الذي ترك الاولاد يتامى والنساء ايامى وهكذا من مراتب المصائب وأنواع اذنيات من حرق وغرق وموت فجأة وميت لم يدركه الطبيب وغريب لم يشتف من الحبيب والنساء كلما يسمعن هذا يضررن بأرجلهن الارض وهن دائرات النائح صائحات باكيات على أشنع حال يستنكره الشرع ويستقبجه انفعال الرجال في أسفل الدار لانا هي منهم أبداً كأنما اعتادت الاذان على هذا الحال . ولا فرق في هذه العادات بين غنية وفقيرة وعظيمة وحقيرة . ثم أخذ بعض النساء يخرجن الى بيوتهن وكل واحدة منهن حملت معها من اثر هذا الانفعال داء تنص به على زوجها يوماً وليلة من أصناف الاوجاع والصداع . وبقيت في محل المأتم الفرق التي شأنها ذلك وأخذت الطهارة تشتغل بتحضير الطعام كأنما المأتم فرح وكيس صاحبه مفتوح لهذا التبذير والاسراف حتى أذن الظهر فامتدت الموائد وأضحت النسوة الباكيات آكلات والنائح ضاحكات واشتغل كل بشأنه حتى انتهت المآكل وأخذ الباقي في الانصراف ولم يبق

من أصحاب البيت الا خلطاؤه الاعزة الذين كان يجب من بادئ الامر قصر العزاء عليهم . وهكذا اقيمت الموائد للرجال أيضا وما انتهوا منها حتى أذن العصر فوافت القراء وتوافدت الزوار وقامت أشخاص مخصوصة للاستقبال والتعظيم وآخرون للترحيب والتأهيل وغيرهم للاجلاس والتشيع ودارت عليهم القهوة وسجاير الدخان كأنما هم في فرح . فقلت لصاحبي اليس لهؤلاء القوم من زاجر ؟ قال نعم : قام من أهل هذه البلاد ناصح ورأى اقتصاد الذمقات والتقليل من هذه المنكرات فأثر قوله في الرجال فاقترضوا من المآثم على ثلاث ليال وأبطلوا شيئا من العادات كانت تفعل أمام الجنائز مما يسمى في عرفهم بالكفارة وهي عبارة عن خبز وتمر توزع على الفقراء . ولكن النساء يقين على القيام بكل العوائد التي منها هذا العويل لمدة الاربعةين وفي كل موسم على طول السنين . فقلت العجب العجب أرادوا ابطال البدع فعمدوا الى أحسنها فأبطلوه وجاءوا الى أشنعها وأقروه وليتهم أبطلوا ماله النساء وأقروا ماله رجال

ثم قال وأين أنت من أقبح العادات ! الحمد لله على انك لم تر خروج النساء الى المقابر خلف الجنائز خصوصا ما كان منها من أطراف البلدة . انى أظنك لا تقوى على مشاهدة هذا الحال . وكيف تفتح العين على مئين من النساء المعولات وكلهن قد صبغن الوجوه والأيدى والملابس بالسواد وبأيديهن المحارم يشوبن بها وقد اختلطت الأصوات أي اختلاط ووصلت الى السماء . والا خلال بالآداب المرعية فضلا عن التهاون بأوامر الشرع ونواهيها باد لكل من عنده مسكة من عقل

ولو نظرت لخروج نساء الامراء الى المقابر في أيام المواسم والاعياد .

وقد جعمن من المآكل والمشارب ما يكفي لقضاء الليالي هناك لتعجبت من اتخاذ هذه المواضع - مواضع التذكر - أماكن إقامة يتلوث فيها الميت والحى . ولا يعود على تلك الجهات الا القاذورات التي تبقى من بقاياهن وبقايا أيديهن . نعم ان فيها من فعل الخير والتوسعة على أهل تلك الجهات مالا ينكر وكفى ثواب ما تلى من القرآن على تلك المقابر في تلك الليالي . ولكن هذا الخير كله مشوب بسيئات جمة ولا ينظر اليه بنظر الخير الا اذا كان منقى من هذه الادران والاوزار

على ان سائر البلاد الاسلامية فيها المآتم مطابقة للشرع وفي غير الاسلامية موافقة للمقتضى بحالة لا يتغير فيها حالة البيت وأهله والمتقربين اليه . ولا تنصب فيها البلايا والمصائب بهذا المقدار . ولا يجتمع الموت وخراب الدار . ولا تستمع صياحاً ولا عويلاً ولا بكاءً ولا نحيباً ونحن لا ندعى بدم الرأفة والحنان ولا نوصى الناس بعشوة القلب وشدة القسوة فقد كفى قول النبي صلى الله عليه وسلم «ولا بد للعين ان تدمع» واعظاً . وان تشاغل بلغو القول والقرآن يتلى حتى أصبح الحال (كلجم الحوار فلا هو وحلو ولا هو مر) لا ندري لم اجتمعنا: لقضاء الاوقات أم الاتماظ بمن مات وفات ؟ ورحم الله الخليفة المأمون حيث قال وقد عزى في ولده : «ان كنا واريناه التراب بأيدينا فلم نبك عليه ؟ وان كنا نبكى عليه فلم واريناه التراب ؟» وهذه حقيقة يجب الاقتداء بها لأن الموت أمر عام والتساوي فيه في المصيبة عدل ولا معنى لتكبير الاحزان وتكثيرها وتجسيم الهموم والمصائب وتعظيم النوائب بهذا المقدار

ثم قلت لصاحبى تنقل بنا الى منظر يروق ومخبر يطيب . ومالنا وهذه

المواطن المحزنة وحديثها المؤلم . اما وقدمات الميت فليحى الحى . فلفت وجهي فوجدت معالم مقامة في اما كن طيبة تدل على علائم افراح وولائم سرور . فتحقت من أحسنها منظر او الطفها اجتماعا وحولت بصري اليه . فرأيت مكانا يدل منظره على سعة صاحبه وفرط ثروته فدعونا للعروسين بالرفاء والبنين . ثم أخذنا في الفرجة عليه فاذا به شكل مخضرم : جمع بين ازياء الشرق وعوائد الغرب . فسمعنا من لطيف الاغانى ما أثلج الصدور . ونظرنا من لطائف المناظر ما بهر العيون . وما زلنا حتى ان ينصف الليل . واذا بباب لطيف فتوح في جانب من المكان أدى الى نظام غربي غريب مرسوم على طراز لطيف تبين لنا منه ان الدعوة منقسمة الى قسمين : الاول من دعى للاطعمة الاحتياضية وهم أهل البلد . والثانى من دعى للدخول في هذا المكان وهم نزلاء البلاد أو الاخذون على مشربهم . فدعوهم فلبوا مسرعين ودخلوه وفتحت أصناف المشروبات والمرطبات وأمامهم ما يلزم من الماء كل والفواكه اللائقة لمثل هذا الحال . فاستغرقوا في لذائذهم حتى تجاوزوا الحد اللائق بهم فكان هذا الاسراف من أكبر الدواعى التى أدت لخلل نظام الوليمة لأنهم لم يخرجوا منه الى موضع السماع الا وامتلاء المكان صياحا ونباحا وأفسدوا ما كان منتظما . وبينما أنا غريق في هذه الحالة قال لى صاحبي : تأمل حالنا وحال من تشبهنا بهم . ألسنت ترى طيشا وسكونا وعقلا وجنونا ؟ فنظرت واذا الحال كذلك . واذا كرتى هذه الحالة لىالى فخشهم بموضع اللهو التى أراينهم فيها . فأسهت على اننا تشبهنا وما أشبهنا وليس العيب على العادة وانما العيب على من يستعملها وهو يعلم انه يسئ الاستعمال . وحاشا لله ان يكون ذلك تسييلا لها وانما هو الحرص على مراتب الجنايه فأن الذى بلغناه من أنفسنا لم تبغفه فينا الاعداء

وما زلنا كذلك حتى مضى من الليل معظمه وداخل أوئلك من خمول
الشراب ماغيرت به حالة النشاط معهم فسارعوا للذهاب . وبقينا مع من بقى
من محبي السماع ننقل من مقام الى مقام حتى انتهى أمر الوليمة وانصرف كل
الى مكان . وبقيت مع صاحبي في مناقلة حديث ومناجلة كلام تسترقنا في اثنائهما
سنة من المنام حتى طلع علينا نهار الجمعة الشريف . فتأهبنا الى قضائها وسألت
صاحبي في ذلك فقال لى نلتمس المسجد الجامع لاني أود ان تتأمل لهذه المجامع
فنظرت واذا المساجد والمصليات خلو من المسلمين لم يعمرها غير قليل
منهم وهم عامة الخلق الذين بقيت في قلوبهم حرمة الاسلام ورعاية لابتعادهم
عن تلك العوائد وقليل من الطبقة الوسطى الذين عصمهم الله . وقد قل التسارع
اليها حتى كأن الذى يؤدى صلاتها ويدعى لها يدعى الى بدعة وضلالة . وكان من
في البلدة من حاكم وأمر من غير المسلمين لا اعتداد له بها ولا رعاية لها عنده .
فضاع بينهم أجل مشهد ترتبط فيه القلوب وتتناجى في ميدانه النفوس : مجتمع
المسلمين وحفلة المؤمنين . ولئن دام هذا الحال تصبح هذه المساجد كأثار
الاقدمين تقصد للفرجة والزيارة لا للصلاة والعبادة ويقال لمن يدخلها : « هنا
كان يصلى المسلمون » ثم صرت اتخلل المساجد بنظري في كل محلة فاذا
كأها على هذا الحال حتى وجبت صلاتها . فصايناها حيث أدركناها بعد ان
سمعنا خطبة ترهق منها النفوس اشتملت على سياق وسباق فات علماء البديع
تدوينه وان يسموه « سمّ ساعه » لانه يحيل الصفات الحميدة الى اضدادها فيميت
الهمم ويقطع الامل ويفسد العمل ولا معنى له الا الوجود في رابية على أكمة
أو في نحت تحت جبل قعيدا وحيداً والاستسلام لكل شئ وان يعتقد بأن
لا فرق بين الحياة والموت . على ان الدين يشتمل على معانى وينتظم في ضمنه

أمور أخرى عليها قوام هذه الحياة الدنيا واظهار عجائبها وأسرار موجوداتها
ومخاوتها . وكفى بقول النبي صلى الله عليه وسلم « الدنيا مزرعة الآخرة » ثم انا
خرجنا بعد ان دعونا لخطيب هذا المسجد وخطيب الكاية الاسلامية بحـيـر
وسلام

ثم ان صاحبي اعاد نظري الى ميادين الخلاعة واللهو فاذا هي ملائي
بالاخوان والاصحاب والكل على لذائذهم عاكفون وفي امرهم مستغرقون
حكموا على اليوم انه يوم لهو وخلاعة وعطلة وفكاهة فقرضوا على أنفسهم
فيه ترويج النفس من عناء العمل ولكن على غير ما كان يفعل آباؤهم واخوانهم
الذين سبقوهم بل يتتوا على قضاءه على هذا الحال في موطن الفحش وقبيح
قضاء أحسن الايام في أقبح المواطن . على انهم قد ضيعوا بالتقاليد الجديد تلك
الاجتماعات الجميلة التي كانت تقام فيه في المنازل على أجمل شكل بطهارة ونزاهة
وتقضى بالمسامرات الأدبية والانغانى الشجية . لا عار ولا شئار ولا ملامة
ولا غرامة . فبعد ان رأيت ذلك قلت لصاحبي الى هنا بلغت الروح الخلة قوم
وما كنت أوتر ان أرى بعينى هذه البلدة التي يقال عنها انها « كنانة الله في أرضه »
و« وسط ثوب الخلافة » و« منبع العلوم » في جميع الازمنة القديمة والحديثة التي
لوعده من قصدها من جميع الانام للتعليم والتعلم لغات الملايين غدا بهذا الحال
لاوطنية ولا مليية ولا وحدة ولا دين ولا اعتقاد ولا احترام للعوائد القديمة
ولا عمل بالتقاليد المحترمة

احلف لك ان لو تعيب عنها رجل من أهلها ثم عاد اليها لانكرها واقسم
انها ليست البلدة التي هو من أهلها . لقد كانت هذه الامة لا تتجاوز معاصيها
فكيف تركت العوام تتابع الضلال من الاجانب الى هذا الحد حتى أصبحوا

شركاء لكل فاسق . ماهذا التفنن في الآثام من كل طرف . كل من فيها عامل على هدم عوالمها بحسب طاقته حتى لم يبق من تلك الرسوم المعتادة شئ يستدل به على أصلها . اين مجالس أنسها؟ اين لطف أهلها؟ اين المعروف المعروف في أمراتها؟ اين ظرف خلفاً لها؟ اين نكات ظرفاً لها؟ اين المسامرون من أهلها؟ اين القارئون من فقهاءها؟ اين المغنيون المحيون للياليتها الزاهية الزاهرة التي كان يودا جلساء ان تمد سوادها بسواد شبابهم؟... لقد فقدت كل شئ حتى لطيف الهزل من القول . اين أسباب ترويح النفوس اذا قبضت؟ اين دواعي تحريك الطباع اذا وجهت؟... والله لو ان كل ما كنا فيه كان قيحاً وكل ما صرنا اليه الآن مليحاً لما جازت هذه المعاوضة . ولكن من الواجب ان نبقى بيننا شيئاً من عوائدنا نتذكر به سابق امرنا لنندرك من الم بؤس القديم لذة نعيم الجديد . على ان الحال غير ذلك . ونحن أحوج وأشوق الى ما كنا فيه عما صرنا اليه . لقد استبدلت كل لذة من تلك بهرج ومرج دائمين متلازمين . وتفنن أكلة السحت وخونة الامم في غرس الخراب بيننا فاسلفوا المضطر وشاركو المتوسط وحسنوا للغني السلوك معهم في المراباة فادخلوا الربا عليهم من كل طريق حتى لا تسلم طبقة من مشغولية البال وليفترسوا السكل ويكونوا مأكلة لهم وكان كذلك فخر موهم لذة العيش وأصبح كل واحد في هم وغم من مداومة الفكر في ما صار عليه وما سيصير اليه . وكدرواع عليهم صفاءهم وأذهبوا بهجة الحياة حتى أصبحت تراهم يتكفون الانس في أى اجتماع لانهم لا يغفلون عن ذكر ما هم فيه من تلك الاحوال يتفاوضون فيها في سماعهم وأكلهم وشربهم وأنسهم مع ان تلك السويغات ربما كانت مدبرة بينهم على ترويح أنفسهم ليزيلوا عنها بعض ما هم فيه ولكن كيف ينسى العليل الالم . غدت مواضع اللهو سجوناً على قاصديها

من أهل الوطن يرونها وقد صارت باحدى هذه الطرق ليد الا جانب وأصحابها من فرط ماديهم في وبال . فقدت أملها لذة الحياة لما فقدوا لذة القناعة . حمل لهم الا جانب ما ليس من طباعهم فطمعوا فيه واستبدلوا وعواندهم بنيرها فدخلوا في أمور لا قبل لهم بها تحملوا بفعلها الوزر واثقلوا كواهلهم بالدين فاصبحت ارواحهم في يد غيرهم . وهبوا ثمرة كدهم وكسبهم فاصبحوا في حسرة دائمة لا يروق لهم منظر من مناظرها ولا يتحلى في اعينهم الا وهو ملوث بدماء المظلومين . منهم ملطخ بأثر تلك المكاره التي ذاقها اهلها من اجلها فلكل نظرة حسرة والناس فيهم لم ينسوا حتى رأوا العبرة في انفسهم وخلصت البلدة من النصحاء واصحاب الرأي والتدبير وأسلمت نفسها الى أعدائها يديون منها كل ما فيها من ثراء ومال وجاه وعوائد وتقاليد وأحكام ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

وبينما انا غريق في بحار هذه الافكار أرخى الليل سدوله . وسحب الظلام ذيوله . فبهني صاحبي وقال لي انا على الرحيل غداً ففى أى شىء تريد قضاؤه ؟ فقلت

لا مرحباً بئد ولا أهلاً به ان كان تفريق الاحبة فى غد والله لقد فجعتنا بهذه العجبة التي ما سامت فيها حتى ودعت وكيف اهبط الى الارض بعد ما بكشف عن بصيرتى ومشاهدتى الاحوال على حقيقتها من غير مصانعة ولا مواربة . ولقد صدقت بقول القائل « ان الرذائل تستأثر أصحابها » ولذلك لا يدري الفاسق برذيلة فسقه ولا الزانى بمقت الزنا وهكذا من هم على وجه الارض لو كشف عنهم الغطاء لعلموا انهم فى حمأة قدرة فقال ذلك أمر الله وحكمه فى خلقه فكل نجم أفول . ولكل زهر

ذبول . ولا بد من الفراق بعد التلاق كما سلك من قبلنا هذا السبيل . حتى مالك وعقيل . فقلت الأمر لله في أمرنا واليسك في غدنا . فرأى بعد ان فكر ودبر ان يشهدني الحاكم الاكبر . وأمرني بالراحة والانتظار . لاري بكرة ذلك النهار . فبقيت ساهما . وقضيت الليلة نادماً . حتى طلع النجر فناداني فلييته فرحا . وناديته فجاءني مرحاً . وأخذنا باطراف الحديث حتى أدركنا ضحوة النهار . ثم لفت وجهي فاستشرفت قصر أشا مخ البناء راسخ الاركان باهراً ناخرأ قد شيد على أحسن نظام وأتم هندام واذا وفود الزائر ين تتوارد اليه . وصار يرمنى الى الطبقات المختلفة من أجنب ووطنين ويرينى من منهم فى خدمة الحكومة كالعالم والحاكم والامير والوزير والمفتى والقاضى . ومن منهم فى الخارج كالتاجر والزارع . وحجاب الحاكم وخدمه يدخلونهم حبة حبة على الامير . ودعاني الى التقرب لاستماع الحديث فدوت باذنى حتى ألصقها بمنافذ المكان . واذا الحديث لا يخرج عن مسامرات اللذة والفراغ وكلما عرض شئ وفيه أدنى مساس بالحالة الحاضرة لاتسمع الا صيغ الدعاء والثناء وترتيل آيات الحمد والشكر على ما هم فيه من الخير . كأنما البلدة بلغت غاية الرفاء ووصلت لأقصى ما يتمناه المنتنى لها من السعادة وانتهت فى رقيها لأرقى معارج الكمال . فضجرت وكدت اشافه القوم بما هم فيه . فصبرنى صاحبي وقال لى « لذلك أسباب » وما زلت حتى فرغت الطبقات وانتهت المقابلات فاستئذن على الامر بخادم من خدام حكومة ويده ورقات عرضها وتشرفت باسمه الكريم من غير معارض ولا مناقض لانها مما قرره اماناؤه ووزراؤه فى مثل جلساتهم الماضية ثم آن وقت الظهر فاستدعى خاصته وتناول معهم الطعام وإذا بحديثهم يفيد ان الزائر لم يزر صدقا والمزور لم يلاقه حقاً وانما هو رسم أقيم من قديم ليظهر

فيه الحاكم بمظهر التقرب من رعيته وتكون الرعية مكاشفة له في شؤونها وأصبح الامر الآن وقد ذهب معناه وبقي مبناه فأسفت وندمت . ثم بعد قليل انتقل ركاب الامير بالعز والكرامة حيث مقامه فتابعته بنظري حتى بلغه واذا بشؤون خاصة يظهر انه أعدها لنفي السامة والضجر وقطع الوقت على ما اقتضاه حكم القضاء والتقدير . فتعلقت برقبة صاحبي وآليت عليه ان لا يبرح حتى يشرح . فبعد ان توقف كثيراً انزوي معي الى ناحية وقال ان الامير أدامه الله يعلم فوق من يعلم ويتألم أشد مما تتألم . والله مناشي خير فيه كثيرة امتازبها عن كثير غيره فضلاً عن حرية في الطباع تلي عن شهامة وكرم اخلاق وطيب عنصر . ولكن عرض بعد ذلك من الأمور ما أبطأ سير ذلك الخير . قلت ولم ذلك يكون وتختلف هذه الظنون؟ قال : لا اقول

قلت هل أصبح ما وصلت اليه الأمة من جميع الاتعاب والبلايا والاضطهاد والرزايا مقابلاً من الاهلين بالسكون كأنهم في منازل الرغد والهناء ليس لحاكمها الا كبر خاصة يشاركونه في آله . قال : وغير ذلك

قلت هل يوجد في بعضهم من هو مهتاك للسرم مشيع له مؤثر هواه غير مأمون من الغش والحسد فلا يصح ان يستشار في شيء من هذا؟ قال : وغير ذلك

قلت هل بين هؤلاء الزوار من رفعتهم يد الغير قسراً وحكمتهم جبراً ليطلوا العمل بالخير والمنفعة لحال البلاد فهم في نظره أعداؤه وفي نظر الأمة أوداؤه؟ قال : وغير ذلك

قلت هل أصبح أمينهم غير متحفظ من ائتمان الخونة وصادقهم غير محترس من حديث الكذبة وذو الدين غير متورع عن تفريط الفجرة؟ قال :

وغير ذلك

قلت هل في هؤلاء القوم من يسهل احتمال السلطة الاجنبية ويرضى
ببيع البلاد للغريب؟ قال: وغير ذلك

قلت هل أصبح من القائلين من الباطل غايته فلم يلزم القصد والصواب؟
وهل أسي من السامعين من سمعته سمعة ورياء فلا يدفع بالنصيحة هوى
ولا يبلغها حاجة دنيا؟ قال: وغير ذلك

قلت هل أصبح من السامعين من لا يؤمن على سر فإن ناجيته بخير أو
شر كشفه ولم يرزق به تعاضاً فلذلك لم يخلص أحد له في نية ولم يسع في الخير
خوفاً على نفسه من عيون الأعداء؟ قال: وغير ذلك

قلت لقد أصبح الأمر مما لا يستبهم على ذوى العقول ولا تشتد فيه
حيرة المفكر. وقد وصل علمه الى عامة القوم فضلاً عن خاصتهم وتحققوا
ان الأمور زالت عن مراتبها والعدو صرح عن محضه ولم يصبح لأحد في
جهالة الحال عذر ولا في تضييع الحق حجة. فهل لهذا التقصير والاستبطاء
والاغترار دواء؟ قال: لا أدري

قلت اذا انقطع الامل. وندع العمل. ولا نترقب طواف طائف الغيرة
على النفوس بما فيه مجارة الامم الذين فكروا في أمرهم وشعروا عن ساعدتهم
ونزكوا الى اليأس والقنوط ونشد قول القائل

ويابعد الاصابع من سهيل ويابعد الصلاح من الفساد

فقال لا أدري

فقلت له استخلفك بالله الذي خلقك الا ما هديتني لطريق التحقيق
ونصحتني أيها الصديق؟ فقال لا شيء غير الرجوع الى الله وسلوك الطريق

المستقيم والتوبة عما فرط . واتحاد القلوب على كلمة الصدق واعلاء كلمة الحق
ونبذ التنافر والفتن التي سببت لكم الاحن وجابت الحن . ونزوعكم عما
يسوله لكم الشيطان من البهتان . والتوجه اقبلة الوحدة المحمدية . والسير
على الطريقة الشرعية متعاضدين على نصرة الله لينصركم متوازرين على اقامة
دين الله حتى يستخلفكم فلو استقمتم ما انتقمتم

ثم قال لي ودعني يا صاحبي . جانب جانبي . وتخلي عني . فاذا بي على الغبراء
وهو يصيح بي في كبد السماء : كفاك كفاك ما سمعته باذنك . وشاهدته بعينك .
وهذا فراق بيني وبينك